الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان –

معهد الثقافة الشعبية
رقم الجرد 00147
تاريخ الوصول
رقم التصنيف 7TM/1476

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية

قسم الثقافة الشعبية

فرع الأنثروبولوجيا

النار في الخيال الشعبي
مقاربة أنثروبولوجية
"منطقة تلمسان نموذجا"

رسالة لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية

تقديم الطالب

بن معمر بوخضرة

تحت إشراف

الدكتور / عبد الرحمان خروش

و

الأستاذ المساعد / رمضان محمد

السنة الجامعية 2001 - 2002

إهداء

إلى أبي الذي نـــاصرني وهو طريح الفراش.

إلى أمـــي التي راعتـني بعطفهـــا.

إلى كل الذين أحبهـم بعمق.

أهدي هذا العمل.

المقدمة

تمكنت الشعوب عبر مسارها التاريخي الطويل من التعرف على الجذور الأولى لمكوناتها الثقافية

فاهتدت إلى طرق تحولت من خلالها ثقافتها الشفهية إلى ثقافة مكتوبة . و لا يمكن إعتبار هذا التحول [من الشفاهي إلى الكتابي] وقوفا على طبيعة التفكير البدائي فحسب، و إنما في قدرته على تجسيد بقايا الموروث الشفاهي في القنوات الكتابية. و قد أتاح لها ذلك الكشف عن كثير من الحقائق المرتبطة بمراحل تطورها الحضاري . و بذلك تم تصنيف مجموعـــة من الأساطير و الديانـــات القديمة بأشكالها المختلفـــة و طقوسها التعبدية التي تحمل الثقافة المعاصرة كثيرا من بِنْيَاتِها و إن بدت خفية .

يقتضي البحث في الموروث الشعبي مراعاة الإمتدادات الكبرى لمظاهره إذ أن حدوده لا تتوقف عند اللحظة الآنية ، و إنما تتعداه إلى عقد صلات وثيقة مع الموروث القديم ، الذي يمتد في أنساق حضارية أخرى دون أن يحدث ذلك شرخا بين منظور الذات و منظور الآخر .

إن الوقوف على هذا التواشج بين الماضي و الحاضر و الأنا و الآخر، يتطلب دراسات جريئة ، تتجاوز الكامن في الذهن و الذي يومئ عادة إلى عكس ما

هو واقع أو موروث ، و بذلك فقط يمكن أن تتحول الأنساق الثقافية و الأسطورية على الرغم من لا معقـوليتهـا إلى جـزءٍ من التصـور الإجتمـاعي . فيصير ما كان متناقضا و متصارعا ، متلاحما و متناسقا ، تبدو فيه علامات التعانق ظاهرة.

و لاشك أن ذلك لايقدمه الواقع إذا أ تُخِذ معيارا للتفسير أو التحليل. إذ المخيال وحده هو الكفيل بمنح إجابات شافية عن تساؤلات يثيرها الموروث الشعبي .

إن التخلص من مادية الواقع و من صرامة العقل، و تجاوز التفسير الساذج قادر على تثمين ذلك الموروث و وضعه في مقامه الأليق ، فلا تصبح الأنساق الثقافية صورة لشعـــوب بـــدائية لا تقوى على التفكيـــر السليـم و إنما رموز و دلالات تستعير الثقافات المعاصرة كثيرا من صورها للتعبير عن حاجياتها الجديدة و عن حنينها للأصول الأولى.

و لعل من بين الأصول الأولى لهذه الطبيعة في التفسير الديني أو العلمي موضوع " النار".

فالنار ترتبط برموزٍ عديدة تتجسد عبر مسار واسع من تطور المعرفة البشرية من الإستعمال البدائي الساذج إلى الإستعمال المعرفي المتطور. بل لقد ذهب البعض إلى اعتبار النار أصل كل معرفة ، إذ أن اختراع النار يمثل الزاوية في كل بناء ثقافي كما جسدت ذلك أسطورة بروميثيوس.

إن ثراءا معرفيا هاما يجذبنا إليه و نحن ندرس موضوع النار، فهي تتجلى في كل الأصول المعرفية للإنسان ، فالنار و إن ظهرت عند الشعوب البدائية الأولى كحاجة طبيعية ، فإنها بتقادم الزمن استحوذت على الإعجاب و التمجيد و من ثمة العبادة و التقديس يقول الشهرستاني في كتابه(الملل و النحل) :

" عباد النار زعموا أن النار أعظم العناصر و أوسعها خيرا و أعلاها مكانا و أشرفها جوهرا و أنورها ضياءا و إشراقا و ألطفها جسما و كيانا، و الإحتياج إليها أكثر من الإحتياج إلى سائر الطبائع الأخرى ".[1]

و ما يهمنا من هذه الدراسة ،هو أنها قادرة على إعطاء التفسير الكافي لكثير من الأمثال و الأساطير المختبئة في المخيلة الشعبية، فاختباء " النار في النفس هو أضمن لها من اختبائها تحت الرماد ، فالنار هي الحب الأعلى ultra vivant تحيا في قلوبنا و تحيا في السماء تصّاعد من أعماق الجوهر و تتبدى لنا حبا ثم تعود فتهبط إلى قلب المادة ، و تبقى كامنة منطوية كالحقد و الإنتقام" .[2]

و من كل هذا فالبحث يحاول أن يبين بعض ما ينطوي عليه مفهوم الإنسان للعالم من منطق و سلوك يتمثل في رموزه و أنظمته الدينية عن طريق ما تحمله النار من دلالات.

---

[1] -الشهرستاني- الملل والنحل - دار صعب – د.ط . بيروت 1986 . ص 210 .

[2] – باشلار (غاستون)- النار في التحليل النفسي -تر. نهاد خياطة - دار الأندلس للطباعة والنشر الطبعة الأولى بيروت 1984 ص11 .

إن دراسة موضوع النار يفرض على الباحث أن يعي عمق الإشكالية المتمثلة في رصد تلك الظواهر النارية الكثيرة العالقة في المخيال الشعبي و محاولة تفسيرها و تحليلها ، أو بمعنى أصح ، إدراك الجوانب الخفية لتلك التصورات المتعلقة بالنار كما نجدها في الممارسات الشعبية و الطقوس الدينية ، و هذا لا يعني تقديم البحث على شكل عرض عن موضوع النار و إنما يعني البحث عن جذورها الدفينة في النفس البشرية ، و التي تظهر على شكل عادات أو تقاليد أو طقوس أو غيرها من أشكال التفكير السائد لدى مجتمعنا اليوم.

إن هذا البحث يحاول من خلال تقديم هذا العمل المتواضع ، إيجاد الفهم العلمي و الموضوعي لكثير من الممارسات المتعلقة بموضوع النار، و حسبُ الباحث في ذلك إثارة الإهتمام في محاولة الكشف عن جوانب خفية تدخل في تشكيل فكرأي أمة، و إبراز وعيها الحضاري و مدى مساهماتها في بناء الحضارات الأخرى .

ينطلق هذا البحث من مجموعة من المسلمات هي في الأصل فرضيات حركت الدراسة لتوصلها إلى مبتغاها في حدود ما أتيح من إمكانيات فهي تعتبر أن الموروث الشعبي الجزائري المترسخ في المخيلة ، له منابع أسطورية ضاربة في جذور التاريخ ، ذلك إن بعض الطقوس الممارسة و التي لا تزال الذاكرة تحتفظ بها

وكان القدماء يعتدون بها، هي مزيج من مختلف الأفكار و التصورات و الثقافات التي وسمت التصور الشعبي الجزائري عبر التاريخ من خلال تلاقحها مع ثقافات الوافدين الأوائل.

و لم يقـو الإســـلام على الرغم من إنه ثـــورة ضد الممارسات الغيبيـــة و الأسطورية ، أن يزيل آثار تلك الثقافات التي لا تزال بقاياها مستمرة في المخيال الشعبي حتى اليوم . و لا شك أن النار تشكل إحدى تلك الأنساق التي ترتبط دلالاتها في المخيال الشعبي التلمســـاني بالمـــوروث القديم حين كانت النار تحمل طابع التقـــديس و تنفث كميائياتها روح التصدي و الإندفاع لقتل الشر و تتويج الخير.

من البديهي أن يكون وراء إهتمامي بهذا الموضوع دوافع و أسباب محفزة تفرض على كل باحث مبتدىء الجرأة و المغامرة مع الإحتراس على جدية البحث و موضوعيته و تحقيق النتائج المرجوة منه. كل هذا جعلني أجد الأسباب الكافية التي دفعتني لإنجاز هذا البحث منها الذاتية و الموضوعية.

- فالأسباب الذاتية أو الشخصية يمكن حصرها فيما يلي:

1- يرجع الفضل في سبب إختياري لهذا الموضوع إلى الدكتور **بورديم عبد الحفيظ** الذي إقترح عليّ الفكرة والأستاذ **مزوار لخضر** الذي عمّقها .

2- نشأتي في بيئة عُرفت بالممارسة النارية في طقوسها الدينية و المتمثلة في الطريقة العساوية.

3- فبحكم تخصصي الأدبي ومن خلال مطالعاتي الشعرية أثار إنتباهي ضخامة الإنتاج الشعري المحمل بشتى الرموز الدلالية للنار..

- أما الأسباب الموضوعية فيمكن حصرها فيما يلي:

1- إن الموضوع لايزال بكرا و لم يتناول بالدراسة حتى اليوم بشكل مفصل و عميق.

2- إرتبطت دراسة النار عند العرب بجانبها الوصفي التاريخي و لم توجد لحد الآن دراسة مستقلة لهذا الموضوع إذا ما استثنينا الكتب المترجمة.

3- ثراء موروثنا الثقافي المحمل بشتى الدلالات و الرموز النارية و تشكيله للعديد من أنماط التفكير و الحاجة إلى الكشف عنها.

4- يرتبط هذا السبب بما ذكر آنفا هو ذلك الثراء المعرفي للنار التي تتجلى في كل الأصول المعرفية للإنسان الدينية منها و الإجتماعية و العلمية.

5- يأتي هذا البحث كضرورة ثقافية تحفزنا إلى طرح تساؤلات تنفث في وعينا الحاضر نبض الحياة, إنه يحفزنا إلى أن نتأمل حياتنا، أن نفهمها، و أن نسأل من نحن في علاقاتنا الإجتماعية في الحاضر و الماضي ؟ و ما الذي حدث

6- في تاريخنا الإجتماعي ؟ فنحن لا نستطيع أن نكسر الطابوهات و نخلد إلى العقل السليم الخالي من وشوشات التاريخ إلا إذا فهمنا أنفسنا إنطلاقا من الموروث الشعبي الذي يحمله كل واحد منا.

7- إن دراسة المخيـــال الشعبي و الغوص في أغواره ليس من باب التسلية أو الصدفة و إنما هو ضرورة تفرض على أي أمة تريد أن تعرف نفسها عبر شريطها الممتد في التاريخ و لأننا نرى بأن الدراسات الحديثة أغفلت مثل هذه المواضيع بل أصبحت تنظر إليها نظرة ازدراء تحط من قيمتها.

و من أجل مدارسة النار في مداراتها المختلفة قسم البحث إلى مقدمة و مدخل و ثلاثة فصول وخاتمة.

كان المدخل عبارة عن تحديد للمصطلحات التي وسم بها البحث تحت عنوان " **النار في المخيال الشعبي**" و كانت البداية حسبما تقتضيه المنهجية العلمية، هي إعطاء مختلف التعريفات " للنار" و ما يتعلق بها من تسميات كالقدـــحة و الشعلة واللوعة و قد اعتمدت في ذلك على القواميس خاصة منها القواميس العربية.

ثم انتقلت إلى تحديد مفهوم المخيال الشعبي و ذلك بتناول مختلف الآراء الفلسفية و الأنتروبولوجية التي تناولت هذا المصطلح.

أما الفصل الأول : فكان عبارة عن عرض لمفهوم النار و مكانتها في الحضارات القديمة كالحضارة اليونانية و المصرية و العربية و كيف ارتبط موضوع النار عند تلك الشعوب بأمور غيبية و سحرية ولذلك أفردنا عنصرا خاصا لتوضيح العلاقة بين النار والسحر. ثم انتقلت إلى تناول موضوع النار في الأديان فبدأت بدراسة النار في القرآن الكريم ثم النار في التوراة فالنار في الإنجيل فنار المجوس . و خلصت في نهاية الفصل بتناول موضوع النار من الوجهة العلمية.

فيما تناول **الفصل الثاني** الدلالات الرمزية للنار، فقمت أولا بتحديد مفهوم الرمز و ما يرتبط به من وظائف و علاقات تجسدت خاصة في علاقة الرمز باللغة و الصورة. ثم انتقلت إلى دراسة مختلف الرموز النارية الأكثر حضورا في مخيالنا الشعبي، و لما كانت هناك علاقة وطيدة بين ثنائية النار و الماء فقد أفردنا لهذا الموضوع عنصرا خاصا وضحت فيه هذه العلاقة المتناقضة / المتلاحمة .

و خص **الفصل الثالث** بالدراسة الميدانية لموضوع النار في المخيال الشعبي فكانت البداية إنطلاقا من إعطاء تحديدات منهجية ثم تطرقت إلى دراسة الأمثال الشعبية، فاقتصرت على الأمثال المدونة و الشفاهية المتداولة في منطقة تلمسان ثم انتقلت إلى دراسة النار في المعتقدات الشعبية ، فالنار في الطقوس .

و توج البحث بخاتمة هي عبارة عن استنتاجات عامة حاولنا من خلالها الإجابة عن الإشكالية المطروحة و التحقق من فرضياتها.

و للوصول إلى تحقيق هذه الدراسة ميدانيا ارتأى البحث أن يستلهم بعض إنجازات الأنتروبولوجيا لقراءة الدلالات الكبرى للنار في المخيال الشعبي التلمساني، باعتبارها أداة إجرائية قادرة على وضع الظواهر البشرية " في سياق تفسيري ، يشتمل على كل الأبعاد و المتغيرات، في العالم الطبيـــعي و البيولوجي ، و في العالم الإجتماعي

و النفسي بوجه خاص" [1] .لأن الأنتروبولوجيا تدرس أنساق طبيعية تخضع لقوانين اجتماعية يمكن اكتشافها و التوصل إليها عن طريق الملاحظة و الإستقراء ثم استخلاص التعميمات، و هذا يتطلب جمع قدر ممكن من البيانات و المعلومات و وصف الحياة الإجتماعية وصفا تفصيليا دقيقا يستطيع الباحث بعده أن يكتب تقريرا متكاملا عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التي يدرسها.

كما أن للمرجعية الأنثروبولوجية علاقة وطيدة مع العلوم الأخرى ، فهي بقدر ما تستفيد من العلوم الإنسانية الأخرى ، فإنه يقدم بذلك إجابات لكثير من التساؤلات التي تطرحها تلك العلوم ، و بالتالي فإنها تساعد على تطور و رقي المجتمع .

و من أجل تجسيد هذه المرجعية استعنا ببعض العلوم الأخرى كعلم الأديان و

---

[1] – سيريل بلشاو . تحديات أمام مستقبل الانثروبولوجيا ترجمة محمد جلال عباس مجلة منشورات مستقبلية لعدد 19 ص 21.

علم التحليل النفسي حتى نتفهم ونقارن الدلالات الرمزية التي تعطيها النار لمختلف العقائد و الطقوس باعتبار أن الدراسة الأنثروبولوجية هي مجموعة العلوم التي تدرس الجنس البشري دون الإعتماد على أفكار مسبقة و لأن الدراسات الأنثروبولوجية تبحث عن ذلك التفاعل الذي يحدث بين العالم الداخلي للإنسان ، و العالم الخارجي أي بين النزعات الذاتية للنفس البشرية و العوامل الموضوعية الصادرة عن المحيط الكوني و الإجتماعي.

و إذا كنا مجبرين منهجيا الإعتماد على وصف ظاهرة النار فهذا لا يعني الإستسلام لهذا المنهج أو ذاك و إنما حاولنا من خلال الإجراء الوصفي الإنطلاق من النفسي للوصول إلى ما هو ثقافي أو على حد التعبير النحوي الإنطلاق من الفاعل إلى المفعول به .

صادفتنا خلال إنجاز هذا البحث عدة صعوبات يمكن حصرها فيما يلي:

- ارتباط موضوع البحث بالمعتقدات الشعبية التي وجدت في دراستها صعوبة كبيرة لما يكتنفها من غموض و مجهولية و هذا لغياب الشهادات الأثرية الدالة على ذلك باستثناء بعض الأساطير و الطقوس التي لا نعرف عن نشأتها الشيء الكثير .

- صعوبة التحكم في المنهج " فالموضوع واسع فهو يعني مؤرخ الأديان و العالم الأنتروبولوجي و عالم الإجتماع مثلما يعني المؤرخ و عالم

النـــفس و الفيلسوف" [1] و هذا ما يجعل البحث في ظاهره غير واضح من حيث الصلة بين الشكل الذي نقدمه و المضمون الذي نبحث عنه.

- أن موضوع النار اقتضى الإعتماد على كثير من الشواهد و النصوص التي قد تحمل تناقضا في مفاهيمها, مع ضرورة إيجاد التفسير العلمي لهذا التناقض.

- إن موضوعا كهذا لا يمكن أن نفهمه بالعقل الموضوعي بقدر ما نفهمه بالحدس الروحي و قد استشهد باشلار في هذا المعنى بقول أحد الأطباء " لا أعني بالنار تلك الحرارة العنيفة المضطرمة المضادة للطبيعة، بل تلك النار الحلوة المعتدلة التي تسري في الأمزجة المتباينة برطوبة معينة " و قد علق باشلار على هذا القول :

" إننا لا نجد في هذا القول صفة واحدة يمكن أن تقبل معنى موضوعيا و مع ذلك فهي مقنعة لنا "[1]

- قلة الأبحاث التي تناولت موضوع النار باستثناء بعض الدراسات المتناثرة في بعض الكتب و لهذا فليس في إمكان باحث مبتدىء أن يقوم بردم هذا الخندق .

- يضاف إلى ذلك جملة من الصعوبات الأخرى التي تكاد تكون عامة عند أغلبية الباحثين منها قلة المراجع المتخصصة و صعوبة جمع المعلومات .

---

[1]- مارسيا إلياد – المقدس والدنيوي- ترجمة نهاد خياطة – العربي للطباعة والنشر ط1 دمشق سوريا 1987 ص 187

[1]- باشلار (غاستون) – النار في التحليل النفسي – تر .نهاد خياطة – دار الأندلس للطباعة والنشر - الطبعة الأولى - بيروت 1984 ص 12 .

مدخل

تعريف النار:

يعرف ابن منظور النار (بأنها معروفة أنثى و هي من الواو لأن تصغيرها نويرة)[1] و في التنزيل الحكيم قال الله تعالى" فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ و مَنْ حَوْلَهَا و سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ "[2] و قال الزجاج أن النار في هذا الموضع تعني نور الله عز و جل و من حولها قيل الملائكة و قيل نور الله أيضا. و جمع النار أنوار و نيران، انقلبت الواو ياءا لكسرة ما قبلها و نيرة و نور و نيار.

و قد تعني النار الرأي لقول ابن عربي لما سألوه عن قوله : لا تستضيئوا بنار المشركين فقال النار ههنا الرأي, أي لا تشاوروهم.

و قيل النار هي السِمَةُ فنقول : نِرْتُ البعير: جعلت عليه نارا و مابه نورة أي وَسْمُ.

و قال الأصمعي : و كل وَسْمٍ بسكون ، فهو النار.

و قال أبو منصور (و العرب) : ما نار هذه الناقة أي ما سمتها؟

و النار تعني : الشر و الفزع فنقول كانت بينهم نائرة أي فتنة و حادثة و عداوة.

و نار الحرب و نائرها: شرها و هيجها.

و نرت الرجل : فزّعته و نقرته.

---

[1] - ابن منظور لسان العرب للجزء 5 ص 3541 .
[2] سورة النمل الآية 8.

و من أسماء النار* : الصلاء ، السكن ، الضرمة ، الحرق ، الحمدة (و هو صوت إلتهابها) ، الحدمة ، الجحيم ، السعير ، و الوحى .

و النار درجات و مراتب فقد رتبها النويري [1] و الثعالبي في فقه اللغة إذا لم يخرج زند النار عند الكبح قيل كبا ، يكبو.

إذا لم يخرج قيل : صَلَدَ ، يَصْلِدُ. فإذا أخرج النار قيل : وَرَى ، يَرِي .

فإذا ألقى الإنسان عليها ما يحفظها و يزكيها ، نقول شيعتها فأتقبتها.

فإذا عالجها لتلتهب قال : حضأتُها و أرَثْتُهَا.

فإذا جعل لها مذهبا تحت القدر: قال سَخوتُهَا فإذا ، زاد في إيقادها و اشتعالها قال أجّجْتُهَا ، فإذا اشتد تأجّجها فهي جامحة فإذا طفئت البتّة فهي هامدة فإذا صارت رمادا فهي هابية نجد أن الكثير من هذه الألفاظ مستعملة كثيرا في اللهجة العامية و هي تدل على نفس المعنى الوارد في كتب اللغة .

و من مشتقـــات النار القــدح و الجمع أقداح ، و متخدها قدّاح و صناعته قِدَاحَةٌ و قيل القدّاح و القِدَحَة : الحجر الذي يورى منه النار و يقول الأصمعي قدحت في نسبه إذا طعنت. و قدح الشيء في صدري : أثّر فيه و ورد في الحديث "لو شاء الله لجعل للناس قِدْحة ظلمة كما جعل لهم قِدْحة نور، فمشتق من اقتداح النار."[2]

---

[1] – ينظر النويري . نهاية الأرب في فنون الأدب ج 1 من 103 إلى 104 .

[2] ابن منظور – لسان العرب – ج5 ص3541 .

و من مشتقات النار الشَعَلُ و الشِعْلَةُ: و هي البياض في ذنب الفرس أو في ناصيته و شعل النار في الحطب شعلها و شَعَّلَهَا و أشْعَلَهَا: ألْهَبَهَا فالتهبت. و قال **اللحياني**: اشتعلت النار تأجّجت في الحطب و إذا قلنا: فلان كالمشعال هو تشبيه باشتعال النار لسرعتها.[1]

و قريب من هذا الإستعمال لفظة لاع ، يلاع وإلتاع فؤاده أي إحترق من الشوق و لوعة الحب حرقته.

و اللوعـــة : وجع القلب من المـرض و الحب و الحزن و قيل هي حرقة الحزن و الهوى و الولع هو الجزع قيل رجل هاع ، لاع أي جبان جزوع .

و من خواص النار ، الشُعْلُ و الشَّعْلَة : و هي البياض في ذنب الفرس أو ناصيته و شَعَلَ النار في الحطب يشعلها و شعلها و أشعلها: ألهبها فالتهبت و قال اللحياني اشتعلت النار فأججت في الحطب. و قال مرة " نار مشتعلة ملتهبة متقدة "[2].

ومنه جاء في المثل الشعبي قولهم " فلان كالمشعال " أو " فلان كي زلاميط " *

أما ابن خلدون فقد ذهب في تعريفه للنار مذهب السميائيين القدماء عندما اعتبر النار من العناصر الأربعة و هي النار و الهواء و الأرض و الماء و جعل ما يقابل هذه العناصر عند الإنسان و هي الجسد و الروح و النفس و الصَبْغُ و اعتبرالنار العنصر المطهر لهذه العناصر يقول "فإذا عزلت الماء عن التراب، و الهواء عن النار، فأوضع

---

[1] - ابن منظور - لسان العرب - ج4 ص2281.
[2] - ابن منظور - لسان العرب - ج4 ص2281.
* - زلاميط : لفظة عامية مستعملة في المنطقة و تعني عود الثقاب.

كل واحد في إينائه على حدة و خذ الهابط أسفل الإناء ، و هو الثقل فاسغله بالنار الحارة، حتى تذهب النار عنه بسواده و يزول غلظه و جفاؤه"[1].

و يذهب القزويني في تعريفه للنار مذهب مخالف لكل التعريفات التي ذكرنها فيقول: "النار جرم بسيط طباعه أن يكون حارا يابسا مكانه تحت كرة الفلك و لا لون لها".[2]

فهو يعتقد بأن النار الحقيقية لا لون لها "لأنا نرى الشمع إذا اشتعل كانت شعلته منفصلة عن الفتيلة و لا شك أن الحرارة عند اتصال الفتيلة أقوى و أيضا إنّ كير الحدادين إذا بالغوا في نفخه صار هواءا بحيث إذا دنا منه شيء يحترق و لا ضوء له".[3]

مفهوم المخيال الشعبي :

يكتنف المخيلة غموضا كبيرا يجعل من كل دراسة متعلقة بهذه الملكة دراسة معقدة و عسيرة. ولهذا سنبادر قبل دراسة قيمتها في الطقوس و الممارسات الشعبية بالوقوف عند أهمّ المعانى اللغوية والفلسفية التي أعطيت لها.

إنّ مشتقات مادة " خ – ي ل " تحيل إلى الشخص و الطيف[4] و الشخص هو (سواد الإنسان تراه من بعيد) و الطيف (هو مجيء الخيال في النوم)[5] ، و المعنى المشترك بينهما هو أنّ الشخص عبارة عن مزيج بين الحقيقة و الخيال وأن الطيف هو خيال لا حقيقة له.

---

[1] - ابن خلدون . المقدمة – دار الكتب العلمية – ط 1- 1993 ص 115 .
[2] – القزويني (زكرياء) .عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات ص 160 .
[3] - المرجع نفسه ص 160 .
[4] ابن عبدالقادر الرازي (محمد بن أبي بكر), مختار الصماح، دار القلم, بيروت، (د,ط) ص195.
[5] - نفس المرجع ص403.

يؤكد هذا التفسير بأنّ لفظة "خال" في اللغة العربية تستعمل بمعنى"ظن" و التخييل بمعنىالوهم[1]. يقول ابن منظور" خَالَ الشَيءَ-يَخَالُ خَيْلًا و خِيلةً و خَيْلَةً وَ خَالًا وَ خَيْلَانًا وَ مَخَالةً وَ مَخْيَلَةً وَ خَيْلُولةً: ظَنَّهُ" " وَ الخَيَالُ وَ الخَيَالةُ : ما تشبه لك في اليقظة و الحلم من صورة"[2].

من خلال هذه التحديدات اللغوية ندرك ما للفظة خيل من تقاطع بين الحقيقة و الحلم ، كما أن الإشتقاقات اللغوية للخيالي أو الخيال كما يسميها البعض[3] أو المخيال و المتخيل كما يسميها البعض الآخر[4] وهي تؤدي نفس المعنى.

أما في اللغة الإغريقية و اللاتنية فإن الراجح عند وصف المخيلة هو اعتبارها بأنها تؤدي وظيفة تمثلية Fonction représentative تتطابق مع الواقع ، و بناءا على هذا ففعل الخيال يرتكز على تشكيل شيء أو تمثله ما و غالبا ما يكون ذلك بنية التمويه و التصنع .

و في اللغة الألمانية نجد لفظ البلدينج Embilding[5] المشتق من Bild و الذي يعني القدرة على تكوين الصور. و نلتقي الإنجليزية بلفظ Fantasy[6] إلى جانب Fancy و إيماجينيشن Imagination و توفانسي To fancy كلها تدل على القدرة في تكوين صور توضيحية و إسترجاعية بينما تستخدم الصيغة الفعلية تو إيماجينTo imagine للإشارة أكثر إلى القدرة على منح أوهام معينة صفة حقيقية.

---

[1]- المرجع نفسه ص196.
[2]- ابن منظور,لسان العرب,دار العرب ج5 ص1304.
[3]- استعمله عاطف نصر في الخيال مفهوماته و وظائفه الهيئة المصرية للكتاب ط 1984 .
[4]- استعمله هاشم صالح في ترجمته للمفكر محمد أركون في كتابه الفكر الاسلامي.
[5] - J Jacques Umberger : L'imagination, que sais – je ? Pub 1991, p5.
[6] - Ibid p6.

و يعرف بول فولكي Paul Faulquié المخيلة بأنها "هي القدرة على استحضار الموضوعات المدركة في الماضي و تشكيل تمثيلات جديدة بواسطة عناصر مستعارة من الماضي."[1]

و بهذا المفهوم يميز هذا الفيلسوف بين نوعين من المخيلة:

1- مخيلة مستعيدة Reproductrice : تتولى إعادة إنتاج صور أحداث الماضي في الوعي و عملها هذا يشبه عمل الذاكرة و الإختلاف بينهما أن الذاكرة تستعيد الماضي بكل أساس أنه الماضي ليس له وجود في حين تستعيد المخيلة الماضي على أساس أنه لا يزال موجودا.

2- **مخيلة مبدعة** : بواسطتها يتمكن الذهن من تشكيل صورة جديدة عن طريق إستغلال الصور التي تحتفظ له بذاكرة ، و هي قد تلعب أدوارا معتبرة في بعض الأمراض العقلية (كالهلوسة Hallucination) أو مرض جنون الكذب Mythonomie .

و لهذا السبب وقف الفلاسفة من المخيلة مواقف متباينة بعضهم رفع من شأنها و البعض الآخر قلل من أهميتها.

و من الذين قللوا من شأن المخيلة الفيلسوف اليوناني أرسطو فهو يرى أن المخيلة كإحساس يتحول إلى لوقوعها تحت تأثير الأهواء التي تحجب الحقيقة و تعمى عنها أو تأثير المرض أو النوم اللذان يضعفان القوى الإدراكية فلا يعود الشخص يميز بين الحقيقة و الخيال.[2]

---

[1] - J Jacques Umberger : L'imagination, que sais – je ? Pub 1991, p6.

[2] - يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ص 244 ط2 دار المعارف بمصر 1954

و في العصر الحديث نجد أن "روني ديكارت" يقف هو الآخر موقفا يحط فيه من قيمة المخيلة لأنه يراها سببا في إدراك الشخص لحقيقة الأشياء مثل معرفة الله و معرفة النفس لأنه تعود على لكن لا يعرف شيئا إلا تخيله بحيث أنّ كل ما ليس قابلا للتخيل يبدو لهم غير قابل للتعقل"[1].

لهذا فإنّ مـدركات المتخيل تبدو معقـدة و صعبة الفهـم لأنّ تركيبها فردي و مصادرها متعددة, لا يمكن حصرها فهي تحتوي على مجموعة من الصور "التي تشكل الرأسمال الفكري للإنسان المفكر Homo-Sapiens لأنه المبلغ الكبير و الأساسي الذي تجتمع فيه إجراءات الفكر الإنساني".[2]

و إذا رجعنا إلى المتخيل العربي الإسلامي نرى أن فلاسفة الإسلام قد وضعوا آرائهم عن الخيال و دوره و ممكانته في خلق توازن انفس عند الإنسان.

فابن سينا يرى بأن الخيال يلعب دور الوسيط بن الأشياء و العقل يقول "إنّ الحسّ يعرض على الخيال أمورا مختلفة ، و الخيال يعرضها على العقل ، ثمّ العقل يفعل فيها التمييز و التجزئة ، و يأخذ كل واحدا من المعـانى مفـــردة و يرتب الأخص و الأعم و الذاتي و العرضي ، فترتسم حينئذ في العقل المعاني الأولى للمتصورات ثم يركّب منها الحدود"[3].

فالخيال عندئذ هو الذي يقوم بدور تجريد الأشياء من الأعراض الزائدة يكوّن منها صورا يحفظها و يقدمها للعقل.

---

[1] - Descartes : Discours de la méthode – textes présentés par André Bridout, La pleiade, Gallimord 1953 p 150,151.

[2] - Gilbert Durant : Les structures Anthropologiques de l'imaginaire - Bordas 1992 p XVI.

[3] -ابن سينا: كتاب النجاة, تحقيق ماجد فخرى, منشورات دار الآفاق الجديدة, بيروت ط1 85 ص 201

و هو نفس الرأي الذي ذهب إليه محي الدين ابن العربي إلا أنّ مسار الخيال عنده يبدأ من المعنى لينتهى إلى الحس أمّا ابن سينا فيرى بأن الخيال يقوم بدور نقل الحس إلى المعنى. يقول ابن عربي " المعاني المعقولة أقرب إلى الخيال منها إلى الحس لأنّ الحس طرف أدنى و المعنى طرف أعلى و الخيال بينهما ، و الوحي معنى فإذا أراد المعني أن ينزل إلى الحس فلا بدّ أن يعبر على حفرة الخيال قبل وصوله إلى الحس"[1].

من خلال هذه التعريفات المختلفة للخيال و المتباينة في بعض الأحيان ندرك بحق مدى صعوبة تحديد مستويات هذا المصطلح حتى عند أهل الإختصاص الذين " لم يتوصلوا بعد إلى بلورة حدوده أو تخومه"[2].

و ما يهمنا من هذا الإستقراء للخيال Imagination أو المخيال Imaginaire هو كيفية توظيف المصطلحين في الحقل الأنتروبولوجي كأداة منهجية تساعدنا على فهم أي ثقافة شعبية لأنّ متخيل فرد ما أو فئة إجتماعية ما أو أمّة ما، ما هو إلا مجمل التصورات المنقولة بواسطة الثقافة"[3].

و لهذا يمكن أن نقول "إنّ لكل فرد و لكل مجتمع متخيله الخاص المرتبط باللغة المشتركة"[4]. و المتخيل في الحقل الانتروبولوجي يحدده جلبير دوران في كتابه المبنى الانتروبولوجي للمتخيل بقوله "المتخيل يشكل جوهرا الروح أي أنه يسير بمجهودات الكائن نحو تحقيق أمل ما "[5].

---

[1] - ابن عربي (محي الدين) . الفتوحات المكية . المجلد الأول . دار صادر , بيروت بدون طبعة ص 305 .

[2] - محمد أركون : الفكر الإسلامي, ترجمة هاشم صالح , لافوميك الجزائر , م.و.ك ط1993 ص36

[3] - المرجع نفسه ص36

[4] - Gilbert Durant : Les structures Anthropologiques de l'imaginaire - Bordas 1992 p 49.

[5] - محمد أركون : الفكر الإسلامي, ترجمة هاشم صالح , لافوميك الجزائر , م.و.ك ط1993 ص36.

إنّ متخيـل أي إنسان هو الذي يعطيه القدرة على الإندماج في الوسط الذي يعيش فيه من خلال خلقه لنوع من التآلف بين عالمه الخاص و العالم الخارجي . إنّ التخيل باعتباره عملية فردية هو " توافق بين الغرائز المنعكسة لشخص ما بين محيطه و هو الذي يجدّد بصورة إلزامية الصورة الكبرى للتخيل و يمدّها بالطاقة الكافية لديمومتها."[1]

و هذا قريب من مفهوم النموذج الذي دعا إليها يونج و الذي سنقوم بشرحه لاحقا.

[1]– المرجع نفسه ص 36 .

الفصل الأول

1 - النارفي الحضارات القديمة:

إن البحث في أصل النار يقتضي البحث في الميثولوجيا أو كما سماها جيمس فرايزر في كتابه أساطير أصل النار" بأنها فلسفة الإنسان البدائي. فعلم الميثولوجيا جاء محاولة للإجابة عن أسئلة عامة تتعلق بالعالم طرحها العقل الإنساني منذ أقدم العصور البدائية ، و لاتزال تشغله حتى الآن.

فالإنسان المعاصر لا يزال حتى وقتنا الحالي محاطا بالأسرار و هو مدفوع بحكم الغريزة بأن يكشف الغطاء الذي يسترها و من هنا تصبح الأساطير مسألة معترف بها لدى جميع الباحثين "على أساس أنها وثائق من التفكير الإنساني و هو لا يزال في حالة الجنين"[1] و الباحث إذ يتناول موضوع الميثولوجيا ليس لأنها تشبع في نفسه تسلية عابثة و لكن لأنها تلقي ضوءا ينير لنا طريق التطور الفكري الذي سار عليه الجنس البشري.

و في هذا الباب لا يمكن أن نغوص في أساطير أصل النار دون أن نتعرض إلى جيمس فرايزر الذي جمع في كتابه أساطير أصل النار ما يزيد عن 314 أسطورة. و هو يرى أن طريقة إشعال النـــار كانت من بين أهم المخترعات الإنسانية و أغناها من حيث النتائج إذ "لا يوجد على ما يبدو أي دليل مؤكد عن وجود قبيلة مهما كانت متوحشة تجهل استعمال النار و طريقة إيقادها"[2].

[1] - جيمس فرايز : اساطير أصل النار ص 7.
[2] - جيمس فرايز : اساطير أصل النار ص 7.

إلا أن معظم الأساطير التي عرضها جيمس فرايزر تؤكد أن أصل وجود النار يعود إلىعملية سرقة أو سطو قام به إنسان أو حيوان أو أنصاف آلهة.

كما أن هذه الأساطير تؤكد لنا على أن البشرية مرت بثلاثة أدوار في أولها كان الناس يجهلون استعمال النار بل و يجهلون حتى وجودها و في الثاني توصلوا إلى معرفة النار و استعملوها للتدفئة و طهي الطعام و لكنهم كانوا لا يزالون يجهلون طريقة إيقادها و في الثالثة اكتشفوا و استعملوا بشكل منتظم طريقة أو عدة طرق لإستعمالها لا تزال أو كانت لا تزال تستعمل حتى عهد قريب لدى الأجناس الأكثر تخلفا من البشر على الأرض.

و على ضوء هذا التقسيم صنف جيمس فرايزر أصل النار إلى ثلاثة مراحل ثقافية هي [1]

أ) <u>العصر الخالي من النار</u>: إن الكثير من الأجناس البشرية كانت تجهل استعمال النار حسب ما ورد في الأساطير التي رواها جيمس فرايزر عن شعوب متخلفة فكانت تعاني من البرد الشديد و أكل اللحم النيء غير المطهى لذلك كانوا ضعاف الأجسام. لكن الدراسات الحديثة أكدت لنا أن الإنسان البدائي كان قوي البنية الجسدية إلى درجة أنه يقاوم الطبيعة و يتكيف مع ظروفها المتقلبة ثم أن هذه الأساطير لم توضح لنا كيف اهتدى الإنسان إلى طهي طعامه بواسطة النار.

[1] جيمس فرايز : أساطير أصل النار ص 230.

ب) **عصر النار المستعملة** : هو العصر الذي كان يستعمل فيه الإنسان النار لكنه يجهل طريقة إيقادها فهم يرجعونها إلى الصدفة تارة و إلى الصاعقة التي تضرب أرضهم تارة أخرى لذلك كانوا يجهدون أنفسهم في الإعتناء و الإحتفاظ بها و لعل هذا ما أعطى للنار صفة التقديس و يروون في ذلك قصصا عن كيفية الإحتفاظ بها.[1]

في حين ارتبطت معظم الأساطير حول أصل النار بالطيور التي اعتقدوا بأنها الواسطة التي تربط بين العالم العلوي و العالم السفلي (السماء و الأرض) كما تعلم الإنسان كيف يستخدمـــها فشـــق بذلك لنفسه طريقـــا يضمن له و لذريته التغلب عليها و سيادتها جميعا في مستقبل أيامه.

جـ) **عصر النار الموقدة:** هو عصر التقدم الإنساني حين تعلم الإنسان كيف يوقد النار حيثما يريد وبطرق متعددة اقتبسها من الطبيعة أولا و أتقنها بالمرانة و التجربة و تحكم في النار فتملك زمام المدنية.

من كلّ هذا نستنتج بأنه مع إنعدام الأدلة حول أصل النار لجأ الإنسان إلى إعمال خياله في كشف هذا السر العظيم الذي حققه في بداية مشوار وجوده معطيا بذلك تفسيرات خيالية لكنها قريبة من الواقع حسب طريقة إكتشافها و إيقادها منها نار السماء ـ نار القدح ـ نار الإحتكاك[2]. و سواءا أكانت هذه التفاسير حول أصل النار صحيحة أم لا إلا أنه المتفق عليه هو أن الطبيعة هي التي أوحت إلى الإنسان إكتشاف النار * و هذا لسبب

---

[1] ـ جيمس فرايز : أساطير أصل النار ص 235.

[2] ينظر إبراهيم كوحيل – النار و النور – ص 22 – 23 .

* هذه الأساطير ترجع إلى إعتقاد واحد هو أن أصل النار يرتبط بقوة خفية و إن كانت مصادرها طبيعية فحتى للطبيعة أرواح فنار الصاعقة مثلا هي رسول من السماء .أنظر جيمس فرايز- ص233-

بسيط هو أن هذه الطبيعة لا تزال حتى وقتنا الحالي تقدم لنا مناظر نارية ممثلة في صورة البركان أو الصاعقة أو إحتراق الغابات.

كما نجد أن الطريقة البدائية لإيقاد النار لا تزال مستعملة حتى اليوم عند بعض القبائل البدائية أو حتى عند الأقوام المتحضرة كما يظهر ذلك لدى العناصر الكشفية. إن أهمية النار في حياة البشر، جعل مختلف الأقوام و الحضارات ، تهتم بدراستها ، و تثير حولها الآراء الفلسفية و المعتقدات الأسطورية.

2- مفهوم النار عند القدماء النار عند القدماء:

أ_ النار عند اليونان :

لعل أول من أقر للنار بفضل عظيم في الوجود هو فلاسفة الإغريق الذين أنشئوا مذهبا في الحكمة و الفلسفة بحثت في شتى الأمور حتى في تركيب المادة، و من آراء فلاسفة الإغريق في المادة أن الأشياء مهما تنوعت مظاهرها و اختلفت تراكيبها و تباينت خصائصها ترجع إلى أصل واحد أطلقوا عليه اسم الهيولي[1] و يرون أن تكوين المخلوقات جميعها أربعة الماء ـ الهواء ـ التراب و النار, إرتبطت هذه العناصر بالإنسان فإذا كان حاد الطبع جم النشاط كان مزاجه ناريا و إذا كان ضحوكا، لعوبا، خفيف الروح ، معتدل المزاج كان هوائيا و هكذا.

[1] ـ الهيولي: القصد منها المادة و البدائية هي الجوهر الفرد و منها خلق الكون و تفرعت أنواعه.

و هو نفس القول الذي ذهب إليه أرسطو الذي ينطلق في تفسيره للخلق الأول من مبدأ الهيولي التي تفرعت عنه العناصر الأربعة التي هي متضادة بطبيعتها "النار خفيفة، التراب ثقيل، الهواء أدنى.

كما إعتقد قدماء اليونان أن السماء ذات طبيعة نارية، وأن الكرة السماوية مقسومة إلى نصفين أحدهما مؤلف من نار و الثاني من هواء ممزوج بقليل من النار، فعندما يواجهنا النصف الناري يصبح الوقت نهارا و عندما يواجهنا النصف الهوائي يصبح الوقت ليلا.

و من الأساطير التي تناولها قدماء اليونان في أصل النار و هي الأكثر إنتشارا تلك التي تتعلق بأسطورة بروميثوس Promethous الذي صعد إلى السماء و اختلس النار من محفة الشمس الملتهبة في غفلة من الآلهة و هبط بها إلى الأرض خفية.

ب- <u>النار عند المصريين:</u>

بلغت النار عند المصريين مبلغا إرتقى بها إلى مرتبة الفن بل كانوا يسمونها فعلا بالصنعة المقدسة.

و احتكر العلماء أصولها و توسعوا في فروعها و افتتن الرهبان في عملياتها و حرصوا على ألا تنتقل أسرارها إلى عامة الشعب فساغوا من المعادن الغالية حليا و الوضيعة أسلحة.

كما أن المصريين القدماء كانوا في طليعة الشعوب التي اهتمت بالشمس اهتماما بلغ درجة التقـــديس و العبادة ، إعتقـــادا منهـــم بأنها إله له قدرة السيطرة على الكون و التصرف في شؤونه.

" و أول فراعنة مصر الذين ألهوا الشمس و أقاموا لها المعابد و عبدوها، ملوك الأسرة الرابعة، الذين دعوها بالإله (راع) و أضافوا اسمها إلى أسمائهم لتباركهم و لتحفضهم حسب إعتقادهم"[1].

و أهم مركز لعبادة الشمس و معابدهم في زمن تلك الفترة كانت بلدة " عين الشمس "، و قد أقام قدماء الفراعنة معابد للشمس بجوار أهراماتهم التي بنوها في منطقة " أبي صير"، و قد نقشوا على جدرانهم الزوارق الجميلة الملونة التي اعتقدوا بأنها تحمل الشمس الإله - و التي رمـــزوا لها بقـــرص مشع - في رحلتـــها اليوميـــة بين الليل و النهار.

كما أن تمثال "أبو الهول" ا لذي أقيم بجوار أهرام الجيزة ، وضع كرمز للإله راع.

جـ عند العرب :

كانت للنار عند العرب صبغة طقوسية أكثر منها عقائدية رغم أن جيران العرب من الفرس كانوا من المجوس عبدة النار ، فالنار عندهم كانت ، تضرم في مناسبات جليلة كالحلف أو لغاية التأثير في مصير من يكرهون عودته فالنار كانت "تستعمل إما علامة

[1]- الشمس - إبراهيم حلمي غوري- دار الشرق العربي د ط ص7.

من العلامات يقصدون بها إلى معنى مباشر متواضع عليه فتكون بمثابة الإشارة أو تكون ضمن الشعائر و الطقوس رمزا مثقلا بالمعاني و الدلالات"[1].

و لقد أحصى النويري في نهاية الأرب مايقارب (14) أربعة عشرة نوعا من النار و قد صنفها إلى نيران حقيقية و نيران مجازية.

فيما يتعلق بأصل حديث النار يذكر صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب " أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض وحجّ نزل جبل أبي قبيس فأنزل الله عليه مرختين من السماء فحك إحداهما بالأخرى فأوريا نارا، فلهذا سمي الجبل بأبي قبيس"[2] ـ

بينما نجد حدوث النار في القرآن الكريم من الشجر لقوله عز و جل " الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ "[3]. و قوله تعالى " أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون".[4]

و لهذا تقول العرب في كل شجر نار، و استنجد المرخ و العفار لأنهما أسرع إقتداحا.

بينما نجد فكرة الحدوث عند أهل الكلام * و هي أن الله عز وجل جمع في النار الحركة و الحرارة، و اليبوسة و اللطافة و النور و هي تفعل بكل صورة من هذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرى. فالحركة تعلي الأجسام و بالحرارة تسخن، و باليبوسة تجفّف و باللطافة تنفذ و بالنور تضيئ ما حولها. ومنفعة النار تختص بالإنسان دون

---

[1] عجينة (محمد) موسوعة أساطير العرب ـ دار الفارابي ـ بيروت ط1 لبنان 1994 ص 263 .
[2] ـ النويري ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ج1 , ص103.
[3] ـ سورة يس الآية 80.
[4] ـ سورة الواقعة الآية 71 .
* ـ ينظر كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري الجزء الأول ص 103 عند حديثه عن خلق النار.

سائر الحيوان فلا يحتاج إلى شيئ سواه و ليس به عنها غنى في حال من الأحوال و لهذا عظمتها المجوس.

هكذا نجد أن للنار عند العرب كما عند سائر الشعوب الأخرى، حضورا قويا في مختلف الأنظمة الرمزية التي أنشأت من أجل أنـسَنَـةِ الواقع ، و السيطرة عليه، و نيران العرب فيها ما لا يتعدى الفهم اللغوي و فيها ما يتجاوز ذلك إلى نظام رمزي ، مثقلا بالمعاني و الدلالات ، و من هذه النيران نذكر ما يلي :

أ ـ نار القربان:

كانت تمثل عند بني إسرائيل موضع إمتحان لإخلاصهم لله عزّ و جلّ فكانوا يتقرّبون بالقربان فمن كان منهم مخلصا نزلت نار من السماء حتّى تحيط به فتأكله فإذا فعلت ذلك كان صاحب القربان مخلصا في تقرّبه و من لم تنزل عليه نار قضوا بأنه كان من مدخول القلب فاسد النية. و هذا ما أورده القرآن الكريم " الَّذِينَ قَـالُـوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَـا أَلاَّ نُـؤمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّـى يَأتِينَـا بِقُرْبَـانٍ".[1]

ب ـ نار التحالف :

هي التي توقد عند التحالف فلا يعقدون حلفهم إلاّ عندها فيذكرون عند ذلك منافعها و يدعون إلى الله عزّ و جلّ بالحرمان و المنع من منافعها على الذي ينقذ الحلف، و يضيف النويري أنّهم كانوا يطرحون فيها الكبريت و الملح فإذا فرقعت هُوِّلَ على الحالف.

---

[1] ـ سورة البقرة الآية 151 .

يقول الكميت ابن زيد :

همو خوفوني بالعمى هوة الردّى ** كما شبّ نار الحليفين المهوّل

جـ - نار الحرب:

و هي تلك التي كانت توقد على الجبل ، إذا ارادوا حربا فتكون لمن بَعُدَ علامة و دليلا و هي تلك التي يذكرها ابن الرومي:

لهُ نَارَان نَارُ قِرَى و حَرْبٍ ** تَرَى كِلَيْهُمَا ذَاتَ إلْتِهَابِ

د - نار الإستمطار:

كانت توقد في الجاهلية الأولى, إذا أجدبت الأرض و أمسكت السماء و أنحبس المطر مدّة عمدوا إلى السلع و العشر* و ربطوها في أذناب البقر و أصعدوها إلى حبل وعر ، و أشعلوا فيها نيران ضاجّين بالدعاء و التضرع و سمي ذلك تسليعا.

نجد علاقة بين المطر و النار و البقر لأنّ البقر و الثور في تصور الشعوب القديمة من رموز الخصوبة يجمع معانيها (النسل، و الحرث ...).

إن تعدد النيران عند العرب يمكن أن يفسر بطبيعة العلاقات ، مع أقوام كانت النار عندهم معبودا و رمزا، للتطهير و الخلاص. و لعل شيوع الظاهرة في الأطراف المجاورة للفرس ما يؤكد هذا المنحى ، إذ العرب القداماء لم تكن ديانتهم المختلفة، مجسدة لألوهية النار. و لم تشر أخبارهم و لا أشعارهم إلى تقديس خاص لها. و قد يكون لطبيعتهم الصحراوية دور في هذا الاتجاه، حيث كان همهم الأول البحث عن الماء الذي يصل درجة التقديس حين فقدانه ، أما النار فكانت تغنيهم الشمس عن التطلع إليها. غير

---

* - السلع و العشر : نوع من الحشائش السريعة الالتهاب .

أن ذلك لا يعني غياب تصور العرب للنار، التي نجدها مرتبطة بالعرف أكثر من ارتباطها بالمعتقد الديني.

2 - النار و السحر :

يطلق السحر في لغة العرب على كل شيئ نفي سببه و لطُفَ و دَقّ و لذلك تقول العرب في الشيئ السديد الخفاء : أخفى من السحر.

و المراد بالسحر في الإصطلاح : الأقوال و الأفعال التي تنافي أصول الدين و تتعارض مع الأخلاق الشرعية، و لهذا عرّفه بعض الفقهاء بأنّه "كلام مُؤَلفٌ يعظم به غير الله تعالى، و ينسب إلى مقادير الكائنات".[1]

و قد فسّر بعض الفقهاء السحر بأنّه أمر خارق للعادة ينشأ عن سبب معتاد و قال صاحب إرشاد المقاصد هو علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية.

و يرى ابن خلدون بأنّ السّحر فرع من فروع الكيمياء يقول : " يعتقد في أمر الكيمياء أنّها من جنس آثار النفوس الروحانية, و تصرّفها في الطبيعة إمّا من نوع الكرامة, إذا كانت النفوس خيّرة ، أو من نوع السّحر إذا كانت النفوس شريرة فاجرة ".[2]

فابن خلدون يفرّق بين الكرامة و السّحر كالتفريق بين الخير و الشرّ و على هذا الأساس صنّف البعض السّحر إلى قسمين : "السّحر الأبيض" و هو السّحر النافع الذي يقصد به دفع الأدى و محاربة الشرّ و " السّحر الأسود" و الذي يستعمل للإيداء و غرس الشرور بين النّاس.

---

[1] . ابن عربي (محي الدين) الفتوحات المكية – المجلد الثالث ص 85 .
[2] - ينظر ابن خلدون – المقدمة ط 1 . 1993 – 116 .

أن ذلك لا يعني غياب تصور العرب للنار، التي نجدها مرتبطة بالعرف أكثر من ارتباطها بالمعتقد الديني.

2 - النار و السحر :

يطلق السحر في لغة العرب على كل شيئ نفي سببه و لطُفَ و دَقّ و لذلك تقول العرب في الشيئ السديد الخفاء : أخفى من السحر.

و المراد بالسحر في الإصطلاح : الأقوال و الأفعال التي تنافي أصول الدين و تتعارض مع الأخلاق الشرعية، و لهذا عرّفه بعض الفقهاء بأنّه "كلام مُؤَلفٌ يعظم به غير الله تعالى، و ينسب إلى مقادير الكائنات".[1]

و قد فسّر بعض الفقهاء السحر بأنّه أمر خارق للعادة ينشأ عن سبب معتاد و قال صاحب إرشاد المقاصد هو علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية.

و يرى ابن خلدون بأنّ السّحر فرع من فروع الكيمياء يقول : " يعتقد في أمر الكيمياء أنّها من جنس آثار النفوس الروحانية, و تصرّفها في الطبيعة إمّا من نوع الكرامة, إذا كانت النفوس خيّرة ، أو من نوع السّحر إذا كانت النفوس شريرة فاجرة ".[2]

فابن خلدون يفرّق بين الكرامة و السّحر كالتفريق بين الخير و الشرّ و على هذا الأساس صنّف البعض السّحر إلى قسمين : "السّحر الأبيض" و هو السّحر النافع الذي يقصد به دفع الأدى و محاربة الشرّ و " السّحر الأسود" و الذي يستعمل للإيداء و غرس الشرور بين النّاس.

---

[1] - ابن عربي (محي الدين) الفتوحات المكية – المجلد الثالث ص 85 .
[2] - ينظر ابن خلدون – المقدمة ط 1 . 1993 – 116 .

كما صنّف ابن خلدون السّحر إلى ثلاثة مراتب :

- المؤثرة بالهمّة : تحدث بدون آلة و لا معين و هذا الذي يسميه الفلاسفة بالسّحر.
- يكون بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد و يسمّونه بالطّلسيمات و هو أضعف رتبة من الأوّل.
- يكون بتأثير في القوى المخيّلة فيتصرّف فيها صاحب هذا التأثير و يلقي فيها أنواعا من الخيلات ، ثمّ ينزلها إلى الحس من الرّائين بقوة نفسه المؤثرة فيه ، فيظرها الرّاؤون كأنّها من الخارج وهذا نوع يسمى عند الفلاسفة بالشّعوذة أو الشّعبذة.

و هناك تصنيف ثالث للسحر منه المثلي Homéopathic و يعني الشّبيه و المثيل سوف يكون له تأثير على الشّبيه و المثيل و منه أن يصور الشخص تمثال ثم يفعل في المثيل ما يراد إحداثه كأن يحرق أو يطعن و هذا النوع نراه موجودا في يومنا هذا خاصة في المظاهرات السياسية، المعبّرة عن رفضها لشخصية سياسية ما.

و الصنف الثاني يسمى بالسحر الإتّصالي Contagious و مؤدّاه أنّ ارتباط شيئين أو شخص بشيء يملكه أو يستخدمه يؤدّي إلى تأثير متبادل كالحصول على منديل أو منصلة شعر.

هكذا نرى بأنّ السحر، حسب هذه التعريفات و التصنيفات ما هو إلاّ استمرار لمعتقدات قديمة تعتقد في وجود صراع أبدي بين قوى الخير ، و قوى الشرّ كان الإنسان البدائي ينسبها إلى الآلهة (آلهة الخير و الشرّ) و أصبح الإنسان المفكر، ينسبها إلى طبائع النفوس عند البشر.

و قد عرّفه ابن النديم في الفهرست حيث يقول في الصفّ الثاني من المقالة الثامنة "يحتوي على أخيار المعزمين و المشعوذين و السحرة و أصحاب الحيل و الطلسمات "[1] و في معرض حديثه عن هذا الفنّ فرّق ابن النديم المعزمين و السحرة يقول " زعم المعزمون و السحرة أنّ الشياطين و الجنّ و الأرواح قطيعهم و تخدمهم و تتصرّف بين أمرهم و نهيهم ، فأمّا المغرمون ممّن ينتحلون الشرائع فزعموا أنّ ذلك يكون بطاعة الله جلّ اسمه ، و الإبتهال إليه.. و ترك الشهوات و لزوم العبارات، و أنّ الجنّ و الشياطين يطيعونهم إمّا طاعة لله جلاسمه لأجل الإقسام به، و إمّا مخافة منه تبارك و تعالى، و لأنّ في خاصية أسمائه، تقدّست، و ذكره جلّ و علا : قمْعِهِمْ وإذلالهم ، و أمّا السحرة فزعمت أنّها تستعيذ الشياطين بالقرابين و المعاصي و إرتكاب المحظورات ممّا للشياطين في استعمالها رضا مثل ترك الصلاة و الصوم و إباحة الدّماء ".[2]

---

[1] - ابن النديم الفهرست دار المعرفة ط 2 – 1997 – ص 375 .
[2] - المرجع نفسه ص 375 .

السّحر، الدّين و العلم :

تداخل السّحر و الدين يبدو راسخا في المعتقدات الشعبية ، إذ يشكّل العالم المحسوس المادّي و عالم الكائنات الخفيّة ، كالجنّ ، و الملائكة في تصوّر الإنسان البدائي عالما واحدا، لجأ إلى ممارسة عدّة طقوس دينية و سحرية لإتّـقاء شرورها، رسّخ هذا الاعتقاد ما جاء من ذكر الجن و الملائكة في القرآن الكريم ، و وجود السحر و السّحرة ، الذين بإستطاعتهم إيذاء البشر ، حتى أصبح من الصعب التفريق بين ما هو ديني أو سحري في المعتقد الشعبي.

هذا التداخل ، بين السحر و الدّين ، يأتي من خلال أن كلا منهما " يقوم على التفرقة بين عالم محسوس مادي و آخر روحي ، أو عالم ما فوق الطبيعة ، و كلاهما يفرق بين المادة و الروح ، و يعترف بوجود ذوات روحية ذات قوى خارقة للعادة ، تستطيع أن تنفع أو تضرّ"[1].

كما أنّ كل من الدين و السحر يقومان على تأدية طقوس متقاربة من تقديم القربان و الأضحية ، و الإستعانة بالأدعية و الأجاجي.

أمّا الفروق الموجودة بين الدين و السحر فقد "أشار إليها فرايزر عندما ذهب إلى أنّ هذه التفرقة تكمن في ذات الإنسان الذي يفرق في داخلية نفسه بين العملية الدينية و العملية السحرية "[2].

---

[1] - د. حسن شحاتة سعفان – علم الإنسان (الانثروبولوجيا) منشورات مكتبة العرفان . بيروت ص 266 .
[2] - المرجع نفسه ص 288 .

و الفرق الثاني الموجود بينهما هو أنّ الدين يتجه إلى الميتافيزيقا بينما السحر يتجه نحو العلم و نحو التجربة ، و نحو الموضوعية, لهذا كان السحر هو"الجدّ الأول لكل ما نرى من علوم اليوم ، فالطبّ ، و الصيدلة ، و الحرف ، و الصناعات بدأت في صيغ سحرية في المجتمعات البدائية"[1].

و يفرق لفي ستروس في معرض مقارنته بين العلم و السحر " بأنّ كلاهما يخضع لمبدأ العلية و الحتمية، لكن العلم يتم بدرجات يختلف منطقها مع الدرجات الأخرى بينما السحر يتم في درجة واحدة ".[2]

3 - النار في الأديان :

تشترك الكتب السماوية " القرآن الكريم " ، " التوراة " ، " الإنجيل " في الاحتفاء بالنار ، بوصفها عنصرا هاما من عناصر الوجود ، فمنها بدأ الخلق و إليها يعود. و لم تسلم نظرية الخلق عند مختلف الشعوب و العقائد من إضافات حوّلتها إلى أساطير " بسبب تفاعلها في حالتي النشأة و ألاقتباس ، مع الهيئة و النسيج الفكري و الثقافي الذي يكون فيه مع ما يطرأ عليها أثناء النقل و الرواية و السبك من تغيير ففعل المخيلة الجماعية في المواقف و السياقات المتعددة و المتباينة حتى تعبر عن حقيقتة جديدة أو متجددة "[3] حتى أصبح هناك تداخلا بين المعتقد الديني و المعتقد الشعبي في تصورهما للنار و علاقتها بخلق الكون. و حتى نثبت هذا التداخل فسنتناول موضوع النار في أهم الديانات المعروفة .

---

[1] - نفس المرجع ص 288 .
[2] - كلود لفي ستروبس – الفكر البري ص
[3] - د. محمد عجينة – موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالاتها – دار الفرابي – لبنان ط 1 – 1994 - ص 118 .

أ – النار في القرآن الكريم :

تأخذ دلالات لفظ " نار" في القرآن الكريم معانى متعددة و مستويات متباينة تبعدها عن معناها الأصلي المعجمي.

فلفظة نار تكررت في القرآن الكريم مائة و ستة و أربعين مرة (146)* و أغلب المعاني التي حملتها لفظة نار هو الدلالة على العذاب يوم القيامة.

" و هذا ما زاد في قدرها و نباهة ذكرها"[1] و من المعلوم أنّ الله عزّ و جلّ عذّب الأمم بالغرق ، و الرياح و المسخ ، و النقص من الثمرات و لم يبعث عليهم نارا كما بعث عليهم ماءا و ريحا وحجارة و جعلها من عقاب الآخرة ، و نهى الرسول صلّى الله عليه و سلّم أن يحرق بها شيئا من الهوّام إذ قال " لا تعذبوا بعذاب الله "[2] .

و نار جهنّم دركات لقوله تعالى " إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ"[3] ، و بناءا على هذا صنّف الفقهاء أسماء النار حسب هذه الدركات " فالأولى جهنّم ، و الثانية لظى والثالثة الحطمة ، و الرابعة السعير ، و الخامسة سقر ، و السادسة الجحيم ، و السابعة الهاوية "[4] ، و كلها أسماء ورد ذكرها في القرآن الكريم بينما أرجــع عمر سليمان الأشقر في كتابه الجنة والنار هذه الأسماء إلى أنّها كونها أسماء علم للنار كلها ، و ليس لجزء منها.

---

* ـ ينظر معجم كلمات القرآن الكريم – محمد عدنان سالم و محمد وهبي سليمان دار الفكر دمشق ط 1 – 1997 من ص 972 إلى ص 975

[1] ـ الجاحظ الحيوان ج4 ص 463.

[2] ـ الحديث رواه أبو داوود و الترميذي و الحاكم في المستدرك , أنظر الجامع الصغير ص830 .

[3] ـ سورة النساء الآية 145 .

[4] ـ د. عمر سليمان الأشقر – الجنة و النار, ط 1 –1991 ص 26 .

و نار جهنم تختلف في طبيعتها عن نار الدنيا لقوله تعالى " قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّا لَوْ كَانُوا يَفقهُونَ "[1] ، و قد أكّد الرّسول صلى الله عليه و سلم إختلاف هذه الطبيعة في الحديث الشريف فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " أوقِدَ على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم "[2].

يظهر من هذا الحديث أن نار الآخرة تختلف عن نار الدنيا التي لا يمكن أن تكون إلا بالنور أما نار الآخرة فهي مظلمة ، و حتى العلم الحديث لم يعرف هذا النوع من النار.

و النار ليست وسيلة للعذاب و حسب ، بل هي أيضا مصدرا للخلق لقوله تعالى " و خَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ "[3] و قوله تعالى " قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ و خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ "[4].

و قد تأخذ النار معنى الفتنة التي تكون سببا في إيقاظ الحروب و نشر العداوة بين الناس قال تعالى " كُلَمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلحَرْبِ أَطفَأَهَا اللهُ "[5].

و قد تدخل النار في باب المعجزة و الكرامة الإلاهية ، على أنبياءه ، و رسله ، يظهر ذلك في قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام عندما ألقاه المشركون في النار ، جزاءا على ما فعله بآلهتهم فأمر الله النار أن تكون بردا و سلاما عليه ،

---

[1] - سورة التوبة الآية 81.
[2] - رواه الترمذي و ابن ماجة و البيهقي في الشعب مختصرا مرفوعا.
[3] - سورة الرحمان الآية 15.
[4] - سورة الأعراف الآية 28.
[5] - سورة المائدة الآية 64.

قال الله تعالى " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ "[1] ، و منها نار موسى عليه السلام " إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ أَمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّيَ آتِيكُمْ مِنهَا بِقَبَسٍ "[2] و التي فسّرها العلماء على أنّها نار النبوة و لهذا قيل النار على أربعة أقسام : أحدما نار بها نور بلا حرقة و هي نار موسى, و ثانيهما حرقة بلا نور و هي نار جهنم، و ثالثهما الحرقة و النور و هي نار الدنيا و رابعهما لا حرقة و لانور و هي نار الأشجار لقوله تعالى " أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ "[3].

ب - النار في التوراة :

تكررت النار في التوراة في مواضع عدة, أخذت في معظمها رمز القربان توجد هذه الفكرة في قصة سيدنا إبراهيم عندما أراد أن يقدم أحد أبنائه بوصفه قربان تضحية، و المقصود هنا إبنه إسحاق وليس إسماعيل كما ورد في القرآن الكريم.جاء في العهد القديم:" فحمل إبراهيم إسحاق حطب المحرقة ، وأخذه و بيده النار و السكين ، و ذهب كلاهما معا ، فسأل إسحاق أباه هاهي النار و الحطب ، و لكن أين هو خروف المحرقة".[4]

---

[1] - سورة الأنبياء الآية 69 .
[2] - سورة طه الآية 10 .
[3] - سورة الواقعة الآية 71 .
[4] – العهد القديم سفر التكوين.

واضح من هذه القصة أن يهود يجمعون بين الذبح و الحرق (يقول الرب لماذا لي كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب اتخذتم من محرقات كباش و شحم مسمنات ، رؤوس شهوركم وأعيادكم التي بغضتها نفسي و صارت علي ثقلا "[1].

إن عملية الحرق كانت عند البدائيين تفسر ميتافيزيقيا ، أي أنها ترتبط بالأرواح الشريرة ، و عند اليهود استعمل الحرق بوصفه طقسا دينيا ، ثم تحول إلى وسيلة يتم بواسطتها القضاء على الأمراض مثل حرق الجثة المصابة بمرض معدي أو الفراش أو المنزل الذي كانت تأوي فيه ، ظلت هذه الطريقة التي أشار إليها سفر التكوين "متناولة لعلاج الجذام في أوربا حتى آخر العصور الوسطى".[2]

أما النار في قصة موسى فقد أخذت شكلا آخر و هو رمز التجلي ، في سفر الخروج " و هناك تجلى له ملاك الرب بلهيب نار وسط عليقة ، فنظر موسى و إذا بالعليقة تتقد دون أن تحترق ، فقال موسى : أميل الآن لأستطلع هذا الأمر العظيم ، لماذا لا تحترق العليقة؟ "[3]. إن المحافظة الدائمة على إضاءة"السرج"أمام الرب في الديانة اليهودية التي لازالت مستمرة حتى وقتنا الحالي ، تؤكد على رسوخ النار عندهم و التي تدور في معظمها حول الحرق فوق المذبح منها ذبيحة الخطيئة ، قربان المحرقة ، مذبح البخور ... و غيرها *.

لكن انتشار الأنظمة الدينية التي عرفها اليهود من خلال الأنبياء و الرسل المبعثين لهم لم تمنعهم من تعلقهم " بالخرافات و الأوهام و من عبادة الأوثان ، بل ظلت قلل

---

[1]– ديوارنت (ول) قصة الحضارة المجلد الثاني - تر. زكي نجيب محمود دار الجيل -دط. مصر 1988 ص 353 .
[2]– المرجع نفسه ص370 .
[3]– العهد القديم سفر الخروج ص53 .
*- ينظر سفر الخروج ص29 التي وضحت كيفية تقديم القربان, فقربان المحرقة تكون بإشعال محرقة دائمة أمام الرب تقدم عند مدخل خيمة الإجتماع , بينما مذبح البخور فإنه يصنع من خشب سنط لإحراق البخور

التلال مأوى للآلهة و مشهدا للطقوس الخفية و ظلت فئة كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة و تعبد بعل و عشتروت ، أو تقيم الأنصاب و تحرق لها البخور أو ترغم أطفالها على أن يجوز في النار من قبيل التضحية"[1].

و من خلال هذه النصوص المقدمة في التوراة ، نكتشف الصلة بينها و بين بعض الممارسات الشعبية عندنا كإيقاظ الشموع و إشعال البخور و غيرها من الطقوس التي لا نجد لها أصول إلا في التوراة .

جـ - النار في الإنجيل:

تأخذ النار في الإنجيل رموزا متعددة ، ونقترب في أغلبها من دلالات النار الواردة في القرآن الكريم.

منها الرموز التي تؤكد أن الله سبحانه وتعالى هو من طبيعة نورانية ، فقدجاء في العهد الجديد " أن الله نور وليس فيه ظلام البتة "[2].

وبالتالي فإن التجلي الإلاهي لعباده الأنبياء كان على شكل نوراني " أخد يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه ، وصعد بهم علىانفراد إل جبل عال ، وتجلى أمامهم ، فشع وجهه كالشمس ، وصارت ثيابه بيضاء كالنور ، وإذا موسى وإليا قد ظهر لهم يتحدثان معه "[3].هده الفكرة سبق الإشارة إليها في قصة موسى الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى " آنس من جانب الطور نارا "[4].غير أن اللاهوت المسيحي يعتقد في توزيع هده الأنوار على العالم ، والإنسان هو جزء من هدا النور ، لكنه لا يصيب إلا الأنبياء وعباده

---

[1] – قصة الحضارة المجلد الثاني ترجمة زكي نجيب محمود , دار الجيل . مد ط سنة 1988 ص346 .
[2] العهد الجديد رسالة يوحنا الأول ص: 362
[3] – إنجيل متى الصفحة 62 .
[4] - سورة القصص الآية 29

المؤمنين " يقول المسيح " أنا نور العالم من يتبعني فلا يتخبط في الظلام ، بل يكون له نور الحياة ولما جاء اليوم الخمسون كان الإخوة مجتمعين معا في مكان واحد وفجأة حدث صوت من السماء ، وكأنه دوي ريح عاصف ، فملأ البيت الذي كانوا فيه جالسين ، ثم ظهر لهم ألسنة كأنها من نار ، قد توزعت وحلت على كل واحد منهم ، فامتلأوا جميعا من الروح القدس " [1].

هذه الفكرة تؤكد العلاقة الموجودة بين النار والمسيح والتي كانت مجال دراسات مستفيضة جلبت اهتمام علماء الأديان ،فقد ذكر جيلبير دوران في كتابه الأنثروبولوجيا ، " بأن الدي اهتم بدراسة الصليب والنار هو المستشرق بورنوف BORNAUF في كتابه المزهرية المقدسة [2]. إذ وجد أن هناك " تماثلا بين المسيح khristos وبين أغنيAGNI الهندي وأترا ATHRA الفارسي " [3]. لكن هده القرابة بين الأسماء بنيت على أساس الإشتقاق اللغوي ، فأصل لفظة كريستوس (المسيح) قريبة من لفظة كريشنا التي تعني الخلاصة ، العطر ، الزيت، وأن اللفظتين مشتقتان من كريو KHRIO التي تعني ادهن ،اطل، وأن عملية الدهن بخلاصة الزيوت قريبة من الطريقة التي يلجأ إليها الهندوس وكثير من الشعوب البدائية لاشعال النار،كما أن " قداحة الهند الفيدية كانت مصنوعة على شكل صليب" [4]. وقد ذهب جيلبير دوران إلى أبعد من هذا عندما قال بوجود علاقة بين النار والمسيح والشجرة ، فهذه العلاقة لا تزال حسب رأيه حتى وقتنا الحالي نموذجا لإحياء عيد ميلاد المسيح لأن الشجرة غالبا ما تبدو في الخيال والدة النار. ويرجع جيلبير دوران عدم احتفاظ الداكرة لهذه العلاقة الموجودة بين النار

---

[1]- العهد الجديد أعمال الرسل ص: 172

[2]- ينظر جيلبير دوران :الانثروبولوجيا رموزها وأنساقها في حديثه عن الرموز النورانية ص:129

[3]- المرجع نفسه .311

[4]- ينظر جيلبير دوران :الانثروبولوجيا رموزها وأنساقها:ص: 212

والشجرة إلى "الوسائل الحديثة في التدفئة والطهي التي جعلتنا نغفل عن العلاقة الوثيقة بين الشجرة والنار [1].

والنار في اللاهوت المسيحي ترتبط بفكرة الخلق لأن النور الإلهي توزع إلى أنوار وعامنا هو جزء منها . فقد ذكر في العهد الجديد بأنه " ظهر إنسان أرسله الله اسمه يوحنا ، جاء يؤدي الشهادة للنور ، من أجل أن يؤمن الجميع بواسطته، لم يكن هو النور ، بل كان شاهدا له ، فالنور الحق الذي ينير كل إنسان كان آتيا إلى العالم وبه تكون العالم " [2]. هكذا نجد أن فكرة الخلق في الإعتقاد المسيحي أصلها ناري بعدما كان أصلها مائي إذ " أنه بكلمة أمر من الله وجدت السماوات منذ القديم وتكونت الأرض من الماء وبالماء ، وبكلمة منه أيضا دمر العالم الذي كان موجودا في ذلك الزمان ، إذ فاض الماء عليه ، أما السماوات والأرض الحالية ، فستبقى مخزونة ومحفوظة للنار . بتلك الكلمة عينها إلى يوم الدينونة وهلاك الفاجرين " [3] . ففي هذه الرسالة يتحدث الإنجيل عن طوفان مائي نجد له مثيلا في القرآن الكريم في قصة سيدنا نوح عليه السلام ،أما حدوث الطوفان بواسطة النار فلا نجده إلا في الإنجيل ، هذا الطوفان حدث في عهد النبي لوط عليه السلام " ولكن في اليوم الذي خرج لوطا من سدوم أمطر الله من السماء نارا وكبريتا ، فأهلك الجميع " [4]. والنار في المسيحية هي وسيلة للعذاب للكافرين والعصاة " إن كانت عيونك فخا لك فاقلعها وألقها عنك أفضل لك أن تدخل الحياة وعينك مقلوعة من

---

[1]- المرجع : 212

[2]- انجيل يوحنا في حدثه عن المسيح كلمة الله.

[3]- العهد الجديد رسالة بطرس الثانية ص:360

[4]. - إنجيل لوقا ص:116

أن تدخل جهنم النار ولك عينان "[1]. وترى المسيحية أن أخطر عضو في جسم الإنسان والذي يؤدي به إلى دخول جهنم هو اللسان" واللسان كالنار خطرا ، فهو وحده بين أعضاء الجسم جامع الشرور كلها ، ويلوث الجسم كله بالفساد ، إنه يشعل دائرة الكون ، ويستمد ناره من جهنم "[2].من خلال هذا العرض السريع لدلالات النار الواردة في الكتب السماوية نلمح تشابها كبيرا في الرموز التي تؤديها لفظة نار فهي تعبر عن مستويات الزمان الثلاثة من العماء إلى الوجود إلى ما بعد الوجود .

هذا الاعتقاد يأتي كون " أن جميع الأديان تعتقد بأن الله ذو طبيعة نورانية ، فالنور هو الكلمة الألهية ، وهو الحقيقة وسر المحبة ، ونجده في أصل الكون والإنسان "[3]

د- نار المجوس:

المجوس لفظ مشتق من ً موغ ً و ًمغ ً ومعناها النور في اللغة الطورانية* ، ومن هنا جاءت فكرة عبادة النار وتقديسها . وأول من عظمها من ملوك الفرس ًجم ً وقال: "إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب ، لأن النور عنده أفضل من الظلمة "[4].وحسب هده الفكرة ترجع عبادة النار عند المجوس إلى اعتقادهم بقاعدتين اثنتين : الضوء والظلمة مع " بيان خلاص النور من الظلمة وجعلوا الامنزاج مبدءا ، والخلاص معادا "[5]، وفرقوا بينهما بكون النور أزلي والظلمة محدثة وأطلقوا النور على صانعه الأول ً كيومرث ً الذي يعني ً الحي الناطق ً والذي يقد به آدم عليه السلام بينما جعلوا

---

[1]- إنجيل متى ص: 28

[2]. - العهد الجديد رسالة يعقوب ص:346

[3]- مجل ة الفكر العربي المعاصر العدد 42 السنة 1986 ص:43

* - ينظ أ حمد الشنتناوي : الحكماء الثلاثة دار المعارف ط:2 مصر 1967 ص:12

[4] - الشهرستاني : الملل والنحل دار صعب 232/1 .

[5] - المصدر نفسه ص: 232.

الظلمة من "أهرمن" الذي هو الشيطان وهو مخلوق محدث طبع على الشر والفتنة والفساد والفسق .

بينما يرجع بعض المؤرخين أن " أول من عبد النار قابيل بن آدم لأنه لما قتل أخاه هابيل هرب إلى اليمن ، فجاء إبليس لعنة الله عليه وقال له إنما قبل قربان هابيل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها . فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت نار فهو أول من نصب النار وعبدها " [1]. وكيف ما كانت الروايات المختلفة عن أسبقية عبادة النار ، فإن المجوس قد اشتهروا بعبادتها .إذ لا يزال هناك إلى يومنا هذا مئات الألوف من الأنفس تدين بالمجوسية ، وهم أتباعً زرادشتً الحكيم الذي ظهر بفارس في القرن السادس قبل الميلاد، فزرادشت" هو أول من قال ببعض العقائد الجديدة ، التي تضمنتها الأديان السماوية فيما بعد مثل القول بالجنة والنار ويوم الحساب وأن الشيطان هو أصل الشر في العالم "[2] . والزرادشتية باعتبارها عقيدة ترجع إعتقاد أتباعها في عدة أساطيرمنها التي تقول بأن ولادة زرادشت صاحبها هبوط جبل يشع منه النور اختفت معه الكائنات الشريرة ثم انبثق من هدا الطيف شاب يشع منه النور ، يحمل في إحدى يديه غصنل يشع منه النور أيضا ، وقد أعاد هدا الطفل إلى أمه .

وتؤكد بعض الأساطير الفارسية أنً زرادشتً قضى فترة طويلة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمرهفي التأمل والتفكير داخل كهف . وهم يدكرون أن النور كان يغمر الجبل الدي لجأ زرادشت إلى أحد كهوفه ، طالبا الحكمة والمعرفة .

---

[1] - النويري : نهاية الأرب 1/ 105

[2] - أحمد الشنتناوي- الحكماء الثلاثة ص 18

هكدا نجد أن المجوسية تقترب مع بعض المعتقدات التي نجدها في بعض الديانات الأخرى والتي تجعل من النار أو النور رمزا للمعرفة وليست معبودا في حد ذاته ، فحسب هذا المفهوم نجد أن " المجوس ليسوا من عبدة النار كما يعتقد البعض لأن ما دعا إليه زرادشت لا يقوم على شيئ من هذا ، إنما أساسه القلب والوجدان (...) والحق أن المجوس بعيدون عن الوثنية ، ولكنهم يجعلون للنار المكان الأسمى في احتفالاتهم وطقوسهم الدينية "[1].

4 - النار و العلم:

كانت النار ، و لا تزال حتى الآن ، تشكّل أكبر إهتمامات العلم. فكلّ الحقب التاريخية التي مرّت بها البشريّة عرفت آراء علمية مختلفة حول طبيعة النار و مصدرها، و كيفية إشتعالها، و أصبح موضوع النار متداخلا بين العلم و الفلسفة و الأساطير، حتّى أنّ "باشلار" قال "إنّ حدوس النار تشكل عائقا في طريق المعرفة"[2] وفكّ لغز النار ، ظلّت تتجاذبه الفلسفة العلم ، منذ هيروقليطس و أرسطو في العصر اليوناني.

- و لعلّ الفلاسفة القدماء ، أخذوا نهج الكمياويين ، باعتبار أنّ النار كانت عندهم من أكبر الإهتمامات ، حتى أصبح البعض يعتقد بأنّ حلّ اللغز المركزي للكون يتوقف على حلّ لغز النار ، و تحوّل العلم معها ضربا من فكّ الألغاز ، و أصبحت التصورات التي أقامها العلماء عن النار ، و كيفية الإشتعال ، بعيدة عن التصور العلمي الدقيق ، فهناك من قال بوجود سائل داخل المادة هو الذي يساعد على الإحتراق السريع

[1] - ينظر أحمد الشنتاوي : الحكماء الثلاثة-ص:30

[2] - غاستون باشلار – النار في التحليل النفسي ص 16.

مثلما ذهب إلى ذلك العالم " كارّا " عندما فسّر سبب الإحتراق السريع للقشّ و الورق و الإحتراق البطيئ للفحم الحجري ، غير أنّ هذه الآراء المختلفة، تجتمع على إعتبار أنّ النار تنتج عن عملية الإحتراق ، فكيف تتمّ هذه العملية و ما التفسير العلمي الذي أعطي لها؟

- إنّ الإحتراق هو تفاعل ناشر للحرارة ، ينتج عن إتحاد جسمين ، أحدهما المادة المشتعلة : كربون ، هيدروجين ، كبريت ،... و الآخر الأكسجين الذي يوجد في الطبيعة و يشكل ½ الهواء و 21 % آزوت ، 1 % غازات أخرى .

و نقول بأنّ الجسم قابل للإحتراق عندما يكون له خاصية الإشتعال و هي تعرف بما يلي:

الأجسام الصلبة : مثل الحطب ، المطاط ، ...

الأجسام السائلة : البترول و مشتقاته.

الأجسام الغازية : غاز المدن ، الأستيلان ...

و نقول جسم غير قابل للإحتراق إذا لم تكن له خاصية الإشتعال مثل الحجر، الزجاج و الجسم القابل للإحتراق ينقسم بدوره إلى قسمين :

1/ <u>أجسام سريعة الإلتهاب</u>: هي التي تشتعل مباشرة بعد لمس النار سواءا أكانت بلهيب الشرارة Etincelle أو الحرارة مثل البنزين و الغاز.

2/ أجسام غير الملتهبة: هي مواد غير قابلة للإحتراق أي تلك التي لا تشتعل عندما تكون معرضة لتأثيرات الحرارة مثل الفحم ، الصوف ،...

و عموما فإنّ عملية الإحتراق تتمّ وفق ما اصطلح العلماء على تسميته بمثلث النار:

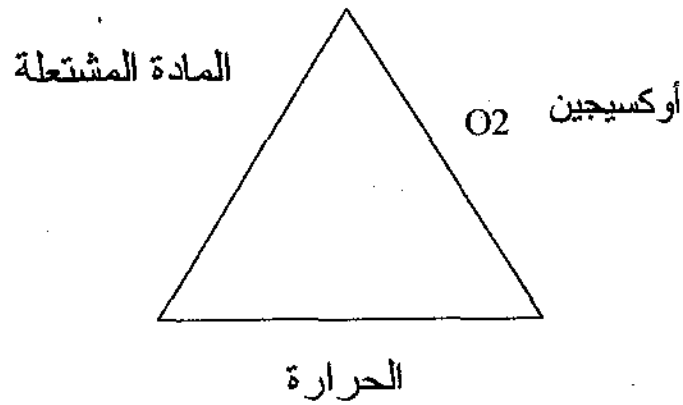

و هي المادة المشتعلة + أكسجين O2 + الحرارة

و تنقسم عملية الإحتراق إلى ثلاثة أقسام :

- **الإحتراق البطيئ :** هو إحتراق غير كامل بحيث أنّ درجة الحرارة تكون غير كافية لكي يكون هناك إرسال للنار و يعرف بالتأكسد Oxidation "التعنصر".
- **الإحتراق السريع:** في هذه الحالة نجد هناك إرسال اللهيب و الدخان مع إرتفاع درجة الحرارة و هو ما يعرف بالإحتراق العادي Combustion.

- **الإحتراق السريع جدّا:** يتم بسرعة تفاعلية كبيرة لا تتجاوز سرعة الصوت مصحوبة بتطاير أجزاء الجسم المحترق مع حدوث إنفجار.

فالإحتراق إذن هو عملية أكسدة سريعة للمادة تتولد عنها حرارة و ضوء، بعض المواد لا يلزمها غاز الأكسجين لإحتراقها كغاز الإدروجين الذي يحترق في غاز الكلورين يكوّن مادة كلوريد الإدروجين، فلإحتراق أي مادة لا بدّ أن تصل درجة الحرارة إلى درجة معينة تسمى درجة الإشتعال و درجة الإشتعال تتوقف على كمية الهواء الموجودة بالهواء و الضغط الجوّي. فكلما صغر حجم الكتلة المحترقة لأي مادة قلت درجة إشتعالها.[1] هذا الاحتراق نجده في المادة الصلبة أما الاحتراق عند الكائن الحي فيعرف بعملية التنفس.

إنّ التنفس عند الإنسان شبيه بعملية إحتراق المواد. فالتنفس في نظر العلم هو عملية إحتراق بطيئة لا يكون لها لهب و إنّما تنشأ عنها حرارة تتوقف على مدى إنتظامها ووجود حياة الكائن بها.

فالأطعمة في جسم الإنسان ، تتحول إلى عملية الهضم ، والتي تتحول بدورها إلى مواد نافعة ، تبقى في الجسم ، و مواد فاسدة يطرحها الجسم ، فالطاقة النافعة تسير عبر أوردة الدم لكي تصل إلى أوردة القلب الذي يوزعها على الرئتين ، حيث تقابل الهواء الداخل إليها بعملية التنفس و هناك في حويصلات الرئتين تتم عملية الإحتراق كالتي

[1]- أنظر الموسوعة العربية الميسرة – دار الشعب – القاهرة – ط2 1972.

تحدث عند إحتراق مواد الوقود من دون لهب و لكن تكون لها حرارة هي حرارة الجسم الحي[1].

و هذا يعني أن النار تظهر عند الإنسان في حالتها الكامنة, أي الحرارة المولدة للنار ، و هذا ما جعل أحد الفلاسفة ، يميز بين أربعة أنواع من الحرارة ، تبعا لدرجة حرارة الحيوان منها : حرارة هاضمة كحرارة المعدة و أخرى مولدة كحرارة الرحم و ثالثة مخثرة كحرارة السائل المنوي و أخرى دارة للبن كحرارة حلمات الثدي .

و هذه الأنواع هي التي يطلق عليها اسم النار الخفية التي تتجلى في جميع الموجـــودات حتى تلك التي تبـــدوا مناقضة للنـــار كالماء مثلا "لنأخذ الماء القوي Eau forte الذي يحرق البرونز و الحديد فناره الخبيثة التي لا حرارة فيها تحرق المعدن حرقا كاملا فلا تبقى له على أثر.

غير أن ثورة كيمياء النار بدأت على يد "لافوازييه" الفرنسي و "بريسلي" الأمريكي و "كافندش" الإنجليزي* الذين كشفوا عن حقيقة النار ووضعوا أسس علم الكمياء الحديثة بدراسة طبيعة الهواء و تركيبه و أثره في النار و أثر كل من الهواء و النار في المواد و استخلصوا من كل ذلك جملة حقائق نوجزها فيما يلي:

- لا تبدأ النار و لا يشتد إشتعالها إلا إذا توفر الهواء حول الجسم المحترق و ليس أدل على ذلك من أنه إذا أريد إطفاء لهب مشتعل حيل بينه و بين الهواء و ذلك بتغطية الجسم المحترق بآخر أو بطبقة من الرمادأو التراب أو الرمل و هي لا تقبل الإحتراق و تحجب الهواء من أن يخالط الجزء المحترق.

---

[1] - أنظر الموسوعة العربية الميسرة – دار الشعب – القاهرة – ط2 – ص 46 -1972.

* - ينظر كتاب ابداعات النار تأليف كاتي كوب و هارولد جولد وايت ترجمة د. فتح الله الشيخ سلسلة عالم المعرفة . العدد 266 .فبراير 2001

- ثبت من تجارب كثيرة أنّ وجود الهواء بجميع مكوناته ليس ضروريا لعملية الإحتراق بل إن الذي يساعد على ذلك جزء منه يسمى الأكسجين أو الهواء الفعال و يوجد في الهواء بنسبة الخمس من حجمه (5/1) ، أي أنّ اللتر الواحد من الهواء يحتوي على مائتين 200 سنتمتر مكعب 300 سم3 من الأكسجين تقريبا و هي وحدها التي تساعد النار على الإشتعال ، أمّا النتروجين فلا يساعد على الإحتراق.
- من الأقوال المأثورة التي ذهبت مذهب الأمثال أن النار تأكل بعضها بعضا إن لم تجد ما تأكله و معنى ذلك أن النار, إن لم يغذها الوقود مع توافر الهواء لا تلبث أن تخمد.

الفصل الثاني

الدلالات الرمزية للنار

إنّ دراسة الرمز ، يفتح أمامنا الإجابة عن كثير من التساؤلات التي نطرحها في سياق دراستنا، للمخيال الشعبي ، لأنّ الرمز يتشكل ضمن مجموعة من الأنماط الحياتية التي مرّت عليها البشرية عبر العصور المختلفة ، و التي أخذت قسطها من الدّراسة و البحث في عصرنا الحديث.*

حتى أصبح الرمز في يومنا هذا ، أداة من جملة أدوات المعرفة ، و أصبح يشكل رباطا ثقافيا، يتّصل" إتّصالا وثيقا بسائر الثقافات الخارجة عن النطاق الأروبي ، سواء، أكانت تاريخية مثل ثقافات آسيا و أمريكا الوسطى أم ثقافات قديمة و بدائية"[1].

و لهذا أصبح البحث ، في منجزات أي ثقافة إنسانية، يتطلب منهجا رمزيا، يتأمل من خلاله ما أبدعه الإنسان عبر نشاط روحه الخلاق. و من خلال مراحل تطوره التاريخي . فالرموز باعتبارها إبداعا إنسانيا جاءت ، لكي توضح لنا ذلك الفاصل أو الفراغ ، الموجود بين الشعور الإنساني و حقيقة الوجود، فهو "رغبة الوعي الإنساني في التعبير عن الحقيقة و الواقع"[2].

و الحقيقة كما يقول عنها Cassirer "* لا تدرك من جهة الوجود المطلق وحده ، و لا من جهة الشّعور وحده ، و إنّما تدرك بإتّحادهما و في الشّكل الرمزي الذي

---

* نشير هنا إلى أنّ جل الدراسات الأنتروبولوجية و النفسية اهتمت بدراسة الرموز التي سنشير إليها من خلال هذا الفصل.

[1] - مارسيا إلياد : صور و رموز ص26.

[2] - الدكتور عاطف جودة نصر - الرمز الشعري عند الصوفية - دار الأندلس – بيروت ط1 1978 ص14.

* - كاسيرر أرنست (1874 – 1945) مؤرخ الفلسفة اطلألماني الأصل انتقل إلى الولايات المتحدة من أهم مؤلفاته (فلسفة الصورة الرمزية) و هو صاحب الرأي القائل بأن التفكير الأسطوري ليس مجرد علم بدائي لأن التفكير العلمي هو تطور متأثر بالتفكير الأسطوري.

يركبه نشاط الروح الخالق ، و في الإبداع المستقل ، نحو الواقع و من ثمّ نحو الحقيقة."[1]

و لهذا السبب فقد اهتم علماء الأنتروبولوجيا كثيرا بدراسة الرموز ، لأنّ الإنسان وحده هو الذي ينفرد عن الحيوانات جميعا ، بالسلوك الرمزي ، و بالقدرة على استعمال الرموز ، و التعامل عن طريقها .

و الرمز هو الذي يحوّل الإنسان من مجرد حيوان فحسب ، إلى حيوان آدمي، و هو أحد المحركات الرئيسية للتمييز بينما هو إنساني ، و ما هو غير إنساني . و ليست الثقافة في محصلتها سوى نسق معقد من الرموز المختلفة ، التي هي أساس كل تنظيمات الإنسان ، و تواصله و مؤسساته . فقد وصف الشاعر الفرنسي بودلير العالم بأنه " غابة من الرموز".

و لهذا اعتبر "الأنتربولوجيون الرموز مقولة ثقافية ، جعلتهم يهتمون بدراسة الرموز و الرمزية ، في المجتمعات البدائية للتعرف على محددات التفكير الإنساني و تصنييف الرموز ، و تحليل محتواها الثقافي."[2]

---

[1]- الدكتور عاطف جودة نصر - الرمز الشعري عند الصوفية ص14.

[2] - فليب سيرنج – الرموز في الفن و الدين و الحياة ص7.

1الرّمز:

أ المفهوم: كثير من العلماء و الباحثين الذين تكلموا عن الرمز في عصرنا الحديث بعدما أدركوا أهميته في الحياة العقلية ، للمجتعات الحديثة . " فالرمز يكشف بعض أوجه الواقع ، الأشدّ عمقا ، و التي تشكل تحديا لأيّة وسائل أخرى للمعرفة."[1]

و الرمز كما يعرّفه لالاند "هو كل دلول مادّي يستحضر بعلاقة طبيعة شيئا ما غائبا أو يستحيل إدراكه."[2]

و قد عرّفه يونغ بأنه " أفضل رسم ممكن لشيء غير معروف نسبيا و الذي قد لا نعرف أن نشير إليه في البداية بطريقة أكثر وضوحا و أكثر تركيزا ".[3] و هكذا يكون الرمز عنده مكتنفا بالغموض الذي يحتاج منا تفسيره و توضيحه حسب المفهوم اليونغي كما سنعرف من خلال دراستنا للرمز فيما بعد.

أما علماء الأنتروبولوجيا فلم يتوصلوا " إلى تعريف دقيق لكلمة رمز أو رمزية بحيث يكون مقبولا لديهم جميعا"[4].

و ماهية الرمزية يمكن تلخيصها بأنّها "إدراك أنّ شيئا ما يقف بديلا عن شيئ آخر أو يحل محله أو يمثله ، بحيث تكون العلاقة بين الإثنين هي علاقة

---

[1] - مارسيا إلياد – صور و رموز – ترجمة حسيب كاسوحة – منشورات وزارة الثقافة سوريا 1998 ص12.
[2] - لالاند أندري – الموسوعة الفلسفية ترجمة خليل أحمد خليل – منشورات عويدات . بيروت- باريس ط1 1996 ص 116 .
[3] - مارسيا إلياد – صور و رموز – ترجمة حسيب كاسوحة – منشورات وزارة الثقافة سوريا 1998 ص12.
[4] - فيليب سيرينج – الرموز في الفن و الدين و الحياة – ترجمة عبدالهادي عباسي – دار دمشق – ط1 1992 – ص5.

الخاص بالعام ، أو المحسوس العياني بالمجرّد ، و ذلك على اعتبار الرمز له وجود حقيقي مشخّص ، إلا أنه يرمز إلى فكرة أو معنى محدّد".[1]

و قد أعطيت لذلك مجموعة من الأمثلة الدالة على الرمز فالحمامة ترمز إلى السلام و الصليب إلى المسيحية و هكذا ...

و في هذا المجال يميّز العلماء عادة بين الرمز و العلامة " إذ أنّ المشار إليه بعلامة ، أبسط بكثير من الفكرة أو المعنى المشار إلية بالرمز".[2]

فإذا رفعنا علم أحمر في طريق فهو إشارة للخطر ، أمّا إذا حملته دولة فإنه يدلّ على معاني إديولوجية ، و بالتالي فهو رمز ، لكل هذه المعاني و الأفكار و النظم المعقدة.

فالرمز إذا يستعمل في أغراض مختلفة و تلعب العوامل النفسية دورا هـــامـــا في تحـديد دلالتـه، كما " أنّ الرمز يشمـل كل أنـــواع المجاز المرسل و التشبيه ، إستعارة ، بما فيها من علاقات دلالية معقدة بين الأشياء بعضها ببعض "[3].

---

[1] - نفسه ص5.
[2] - فيليب سيرنج : الرموز في الدين و الفن و الحياة ص5.
[3] - نفسه ص6.

و بالتالي فهي تحمل معاني قابلة للتأويل حسب القراءات المختلفة ، أما الإشارة فليس لها سوى دلالة واحدة لا تقبل التنويع و لا يمكن أن تختلف من شخص لآخر ، مادام المجتمع قد تواضع على دلالتها فالمصباح الأحمر في الطريق تعارف الناس على أنه إشارة إلى معنى : قف و ليس له معنى آخر.

من كل هذه التعريفات نستنتج أنّ مفهوم الرمز يختلف باختلاف مجال الدراسة التي تدرسه من أدب و ألسنية . و ما يهمّنا من كل هذه المفاهيم ما قدمه الحقل الانتروبولوجي عن الرمز الذي يستمدّ قيمته أو معناه من الناس الذين يستخدمونه . و لهذا يمكننا أن نميز بين الرموز الخاصّة التي نجدها عند الفنّانين و الرموز العامة التي ينتجها المجتمع و التي هي مدار بحثنا .

ب - <u>الوظـائف</u> :

إن قيمة الرمز لا تكمن في وجوده فقط ، بل في الوظيفة التي يؤديها داخل النسق الثقافي لجميع الشعوب. " لأننا لا نستطيع الفهم الجيد لما يحيط بنا إلا إذا عرفنا قيمة الرمز "[1]

فلقد وعى عصرنا الحديث أهمية الصورة الرمزية في الحياة العقلية بفضل إسهام علم الأمراض النفسية ، و النياسة . فالدراسات التي قدمهـا الحقل الانتـروبولوجـي و الحقل النفسـي ، استطاعت أن تقدم تفسيـرا للتناقضات التي تحملها عقلية الانسان "

[1] - مارسيا إيلياد - صور و رموز ص 18.

باعتبـــار أن الوظيفـــة الرمزية عنـــد كل إنســـان هي مكـــان مـــرور و اجتماع متناقضات ، فالرمز في اللغة الألمانية Simbild يعني موحدا لأزواج متناقضة "[1].

إن فك الرموز قصد معرفة وظائفها يخضع إلى عدة مناهج منها المنهج الاحصائي الذي يزودنا به علم النفس أو بالنتائج التي تقترحها علينا الأنتروبولوجيا الثقافية و إن كانت تخلق " نظاما واسعا من التوازن .التناقضي يظهر فيه الخيال الرمزي, كنظام من قوى التماسك المتناقضة"[2].

فبالرموز يحاول أن يجد الانسان انسجاما ما بين عالمه الداخلي و عالمه الخارجي ، و بالتالي تجعله يجد الاجابات ، التي تبعده عن حيرته الدائمة و المستمرة ، ما بين عالم الروح وعالم المادة. فالصورة و الرموز و الأساطير" ليست بالابداعات غير المسؤولة التي تأتيها النفس ، إنما هي تستجيب إلى ضرورة و تؤدي وظيفة "[3].

وظـــائف الـــرمز:

إن البحث في الرموز تجعلنا نقف أمام غموض ، فهي موجودة معنا دائما رغم ذلك التناقض الذي تحمله " فالرموز تظهر لنا تصنفة الأنظمة المتعارضة التي ترتب على أساسها الصور"[4].

ضف إلى ذلك أن الرموز تـــؤدي بنا إلى نفي الفنـــاء الذي يمـارسه الموت و الزمن و يستعمل الرمز من أجل التوازن النفسي الاجتماعي ، فهو كعامل توازن نفسي يظهر خاصة عند مدرسة التحليل النفسي و على رأسهم سغمونت فرويد.

---

[1] - جابير دوران – الخيال الرمزي ص 66.
[2] - جابير دوران – الخيال الرمزي ص 189 .
[3] - مارسيا إلياد - صور و رموز ص 12 .
[4] – جابير دوران – الخيال الرمزي - ترجمة علي المصري – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ط1 1991 ص113.

الرمـز عند فرويد :

إن الرمزية الفرويدية ترجع الرموز كلها إلى الباعث الجنسي (الليبدو) فالرمز عنده" يوصل دائما في نهاية المطاف للجنسية ، إلى جنسية غير نافعة لأنها غير مشبعة و هو هذا الميل المحتوم الذي يسمى عند فرويد باسم الجنسية الجوفية"[1].

و هذه الجنسية تتشكل حسب فرويد أثناء السنوات الخمس الأولى من الحياة و التي يستمدها الإنسان عن طريق التخيل أو كما فسره جلبير دوران بمنهج التداعي أو الترابط أو المنهج الرمزي .

و محرك الرموز في نظر فرويد هو " مركز الرغبة" و هذه الرموز هي نفسها التي تتحرك من مركز الكبت الذي " يتوزع وراثيا على امتداد مواضع محدودة من أعلى إلى أسفل الجهاز الهضمي ليرتكز عند المستوى البولي و أخيرا التناسلي "[2].

و من آراء فرويد في الرموز أنها" مصطلحات تمثل محتويات كامنة اللاوعي و هذا التمثيل سواء جاء عن طريق الصورة أو الكلمة فهو ضروري لتمكين محتويات اللاوعي من الظهور إلى الوعي مستترة وراء شكل الرمز "[3].

و فرويد يرى بأن فهم الرموز يعد ضرورة يقتضيها العلاج النفسي لأن " الفكر البدائي نشأ في غمرة من الأحاسيس و الإدراكات الحسية و ليس في مجال الأفكار و لهذا جاء فهم البدائي لعالمه عبر أحاسيسه المختلفة"[4]

---

[1]– جلبير دوران – الخيال الرمزي ص 44.
[2]– نفسه ص44.
[3]– أبواب العقل الموصدة (باب النوم و باب الأحلام) د. علي كمال ط2 1990 ص120
[4]– علي كمال –أبواب العقل الموصدة . ص112

الرمز عند يونج:

إذا كان عند فرويد مفهوم الرمز ضيقا بحيث أنه قد حوله إلى سببية جنسية نستطيع أن نقول أن لدى يونج مفهوما واسعا للخيال الرمزي يدركه مباشرة في حيويته التركيبية.

إن يـــونج لم ينكر اللبيدو الذي قـــال به فرويد و إنما حوله إلى الصورة الوسيطة له " هكذا فإن الصورة الكبرى الوسيطة عند الرجل التي توازن الشعور الواضح هي صورة النفس" Anima " صورة المرأة الأثيرية و الأليفة بينما هي عند المرأة صورة "Animus " صورة الشاب الأول بطل المغامرات العديدة الذي وازن الشعور الجماعي " [1]. فالرمز عنده عملية وراثية تنتقل إلى الأجيال المختلفة عبر ما يسميه بالضمير الجمعي أو الشعور الجمعي. فيونج يرى بأن " كل فكرة رمزية هي لحظة إدراك للرموز الوراثية الكبرى أي هي نوع من الخلية النفسية الوراثية "[2].

و هو يرفض إرجاع الرموز إلى العالم الخارجي فالنفس عنده " بلاد غريبة، تكاد أن تكون غير مكتشفة. و ما نعرفه عنها، لا يعدو أن يكون معرفة غير مباشرة ، إذ نتوصل إلى معرفتها بواسطة الوظائف الواعية (الشعورية) التي تخضع إلى ما لا يكاد يحصى له عد من إمكانيات الخداع " [3]. و هـذه الوظائف تظهر في علم التنجيم و علم الكف و كذلك علم أشكال الجمجمة و قسمات الوجه و دراسة الخط في عصرنا الحاضر.

---

[1]- جلبير دوران : الخيال الرمزي ترجمة علي المصري م ج د ن ط1 1991 ص67

[2] – C.G yung .Metamorphoses et symboles la labido.Montagne Paris .p25

[3]– ك.غ يونج :علم النفس التحليلي . ترجمة نهاد خياطة .دار الحوار للنشر و التوزيع دمشق ط1 1985 ص115

و هكذا نجد أن الرمز عند يونج يختلف عما ذهب إليه فرويد ، فالرموز عنده ليست طريقة لإخفاء محتويات العقل اللاواعي الكامنة أو المكبوتة, وإنما يجد فيها إيضاحا لهذه المحتويات ، و طريقة لإظهارها بوضوح للعقل و ذلك بقوله " إن الرمز هو مساو على وجه التقريب للأمثولة فهو لايخفى و إنما يعلم"[1].

و يقول أيضا" إن الرمزية هي عملية الإدراك عن طريق التشبيه".[2] لكن هذه الوظائف التي تحدثنا عنها عند علماء النفس لا يمكن أن تكتشف أو تحدد إلا عن طريق الوسائط أو العلاقات التي تقدم بها .

جـ - العــلاقــات :

- الرّمز و اللّغة :

إنّ الفصل في الفروق الموجودة ، بين الرمز و اللغة ، يعتبر ضرورة ملحّة يقتضيها موضوع البحث ، لما يوجد بينهما من تداخل. فلقد تعددت الإتّجاهات في ميدان علم اللغة التي حاولت أن تدرس ماهية اللغة باعتبارها "إيضاحا للموجود و بعبارة أخرى ، اللغة هي الموجود ذاته منكشفا و حيث ينكشف الموجود ، تخلق إمكانية الخطر الذي هو تهديد للوجود من قبل الموجود".[3]

فالكشف عن الموجود يكون من خلال الوعي الإنساني للموجودات التي تحيط به رغم أنّها موجودة قبل التسمية ، و الحفاظ على هذه الموجودات يكون من خلال اللغة .

---

[1] ـ أبواب العقل الموصدة ـ علي كمال .ص327.
[2] ـ أبواب العقل الموصدة ـ علي كمال .ص327.
[3] ـ د. ميشال زكريا ـ الألسنية ـ المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ط2 1983.

و بالتالي فهي تبعد إمكان ضياع الوجود ، أي الخطر . فالعالم ظهر للوعي الإنساني ، بمجرد أن تحققت اللغة ، أما الرمز فإنه ينتج إنطلاقا من وعينا الذاتي و لهذا " يمكن النظر إلى اللغة من منظار ، النظرية التواصلية على أنها واسطة نقل المرسلات الكـلامية التي تقوم على إختيار سلسلة رموز تستمد من نظام رمزي معين".[1]

و في ضوء نظرية التواصل يمكننا النظر إلى اللغة نظرتنا إلى نتظيم الرموز و لكن على نسق جامع و موسوعي . هكذا نرى أنّ علماء الألسنية ينظرون إلى اللغة على أنّها نسقا عضويا من الرموز ينكشف لنا بواسطة فكرنا في طابعه الصوري و طابعه التجريبي ، و نعني هذا أنّ أفكارنا و تصوراتنا تبقى غامظة مبهمة ما لم تمسكها اللغة و تدخلها في جهاز حيّ من الرموز الدّالة.

و حسب هذا التحليل لا يمكننا أن نفصل بين اللغة كوسيلة للتعبير ، أو اللغة كرموز فيها يتمّ الفعل الثقافي و من خلالها تنتشر الثقافات و لهذا " يمكن اعتبار كل ثقافة كمجموعة أنظمة رمزية ، يوضع في الدرجة الأولى منها اللغة ".[2]

الرمز و الصورة:

إن البحث في الرموز يقتضي البحث عن الصورة التي تحتويها المخيلة البشرية،لأن اللغات لا يمكن أن نفسر من خلالها الرموز المختلفة ، فلكل لغة رموز خاصة لا يمكن أن نطبقها على لغـــات أخرى ، و بالتالي تبقى الصورة هي اللغة

[1] - د. ميشال زكريا – الألسنية – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ط2 1983. ص61 .
[2] - ليفيس ترويس – الفكر البري ص40.

المشتركة التي يمكن من خلالها أن نفهم ، المخيـــال الشعبـــي بكل معتقداته و طقوسه و أساطيره.

و نعني بالصورة هنا هو ذلك التصور أو التمثل لذلك الإنطباع الأولي الذي ترسخ في المخيال البشري ، و استمر في وجوده حتى اليوم عبر رموز مختلفة يقول مارسيا إلياد " إن صورا تقليدية معينة أو أفكارا معينة من سلوك الإنسان قبل الحديث، لم تزل موجودة في حالة من استمرار الحياة ...و هي موجودة حتى في اكثر المجتمعات تصنيعا"[1].

و الصورة لا تظهر إلا على شكل تلميحات و إشارات دالة على الواقع المشخص و التي نطلق عليها إسم الرموز و تجدر بنا الإشارة هنا إلى ضرورة التفريق بين الصورة بما فيها من تلميحات ، و إشارات دالة على الواقع. و بين الواقع ذاته الغني و الزاخر بالحياة. فالصورة" بوصفها حزمة من الدلالات هي الحقيقة فلا يمكننا أن نعرفها فقط من خلال واحدة من دلالاتها و على هذا الأساس فإن التعبير عن الصورة بمفردات الواقع المشخص ، و بإرجاعها إلى واحدة من بين دلالاتها المتعددة. هو أشد سوءا من بتر الصورة ، و من تقطيعها إلى أشلاء. إنه لفي ذلك الإجراء إبادتها، و إلغاؤها كأداة للمعرفة" [2] يطرح لنا هذا التفسير جدلية الصورة و الرمز. فال يمكن أن نفهم الصورة بدون الرموز الدالة عليها فلا يمكن ان نفهم الرموز بدون الصورة التي أوجدتها. و هكذا نرى بأنه على الرغم مما يبدو من فرق بين التسميتين إلا أن بينهما

---

[1]ـ مارسيا إلياد- المقدس و الدنيوي- ص50 .

[2]ـ مارسيا إلياد- صور و رموز- ترجمة حسيب كاسوحة ـ منشورات وزارة الثقافة دمشق 1997 ص13 .

علاقة لا يمكن فصلها" فالتصور هو استحضار رمزي" [1] فالصورة إذا هي التي تفتح آفاق الخيال للتعبير عن الذات و إيجاد الإجابات عن التساؤلات التي تطرحها النفس حتى و لو كانت تحمل تناقضا، لذلك نجد أن الصورة من حيث بنيتها فهي متعددة المعاني و الدلالات و لذلك فهي تستطيع ان تقدم لنا تفسيرا لذلك التناقض و التعارض الذي يحدث في النفس. إن الصورة مهما كانت معزولة، فهي حاملة لمعنى لايمكن التفتيش عنه خارج المفهوم الخيالي ، و في هذا المجال يكون المعنى المجازي هو وحده المعبر " لأن ما نسميه المعنى الحقيقي ليس إلا حالة خاصة للتيارات اللغوية العريقة التي تحرك علم الإشتقاق فالنموذج الذي تمثله الصورة ليس دلالة تختار إعتباطا ، و لكنه يعلل بجوهر و يكون بالتالي رمزا" [2] و هذا يعني ان الرموز باعتبارها امتداد لنموذج الصورة الأولى لابد أنها تشكلت عبر رموز مختلفة امتدت عبر الفكر البشري. و لا كن السؤال المطروح هو أين وقعت القطيعة بين الرمز و الصورة ؟

إن العوامل التاريخية و الدينية و الإجتماعية كفيلة بأن تحدث تحويلا رمزيا و هذا ما سوف نتحدث عنه في دراستنا الميدانية لبعض الرموز المتعلقة بالمعتقدات الشعبية الجزائرية التي تحولت رمزيا عن ثقافات أخرى ضاربة في أعماق التاريخ البشري و بالتالي يتحول الحديث من الثقافة الشعبية المحلية إلى ثقافة عالمية من خلال العبور على ما نسميه بالصورة فلا" يخفى أن مثل تلك الصور تفضي إلى تقريب بني الإنسان بعضهم بعضا، بفاعلية أقوى و بواقعية أشد مما تفعله للغة التحليلية و بهذا

---

[1] – نفسه ص 13.

[2] – جلبير دوران – الأنثروبولوجيا ص13 .

الإعتبار إذا ما قام تعاون تام بين البشر، فليس بالإمكان الشعور به و تحديده إلا على مستوى الصورة "[1] .

2 - رمــزية النار:

أ - تحديد مفهوم رمزية النار:

إن البحث في رمزية النار يقتضي البحث عن دلالاتها التي تعدت المفهوم الطبيعي إلى المفهوم الاجتماعي و الثقافي و الحضاري" و من هنا يصبح البحث عن رمزية النار عملية صعبة و معقدة تتطلب التوغل في عمق التاريخ و البحث فيما أنتجته الثقافات و الحضارات المختلفة و هذا ما جعل أحدهم يقول عن الترميزية "أن تحلل عقليا رمزا ما يعني أن تقشر بصلة لتجد بصلة"[2].

و هذا لا يعني أيضا أننا نسلك الخط التاريخي أو التحليل العلمي لرمزية النار و إنما نحاول البحث عنها في اتجاه الخط البسيكولوجي الذي قدمه غاستون باشلار في كتابه "النار في التحليل النفسي" و الذي أعلن فيه لأول مرة رفضه للمخطط التاريخي بالإضافة إلى موقفه المضاد للبنية العلمية للنار كما نحاول البحث عن رمزية النار في الخط الأنتروبولوجي الذي زودنا به علماء الأنتروبولوجيا و علماء الأديان و في حقيقة الأمر نجد أن المسارين مكملان لبعضهما البعض" فالمسار الأنتروبولوجي يمكن الإنطلاق من الثقافة أو من الطبيعة النفسية على حد سواء، لأن أسس التصور و الرمز موجودة بين هذين الطرفين القابلين للتعاكس"[3]

---

[1]– مارسيا إلياد- صور و رموز – ص19 .
[2]– غاستور باشلار: النار في التحليل النفسي ص13.
[3]– جلبير دوران – الخيال الرمزي ترجمة علي المصري نقلا عن بيار ايمانويل " قيمة الشوة" ص41.

فغاستون باشلار حاول الإنطلاق من الدراسة النفسية لرمزية النار لكي يصل إلى تفسير الثقافة التي أنتجتـها و يظـهر هــذا خاصة في كتابيه النار في التحليل النفسي و" شعلة قنديل" في حين أن علماء الأنتروبولوجيا ينطلقون من الثقافة لكي يصلوا إلى تفسير السلوك الإنساني بداية بالكتاب القديم الذي قدمه جيمس فرايزر " أساطير أصل النار" 1930 و مرورا بكتابات Mircea Eliade و انتهاء بالسلسلة الميتودولوجية التي قدمها Claude Lévi straus في كتبه " الفكر البري" " من العســل إلى الدخان" و" النيء و الطازج" ، و لهذا سنحاول أن ندرس رمزية النار على مستويين من التحليل:

1- التحليل الوظيفي: الذي تمثله على وجه الخصوص كتابات ليفي ستروبس

2- التحليل النفسي: و سنأخذ كنموذج على ذلك كتابات غاستون باشلار.

أ- التحليل الوظيفي:

نعني بالتحليل الوظيفي ذلك العمل الذي يسمح بتحديد العلاقة بين العمل الثقافي و الحاجة عند الإنسان سواء أكانت هذه الحاجة أولية أو فرعية و حتى يسهل علينا الدراسة لجأ لفي ستروس إلى التطبيقات الثلاث التي وضعها كروبر في ميدان الدراسات الأنتروبولوجية و هي :

1- اللاعضوي : هو موضوع الدراسات الكمياوية و الفزيائية

2- العضوي : هو موضوع الدراسات البيولوجية و البسيكولوجية

3- ما فوق عضوي : هو موضوع العلوم الإجتماعية و هو الوحيد الخاص بالإنسان كمبدع للثقافة و حامل للتاريخ و هذا ما يعرف بالمسار الانتروبولوجي

الفزياء و الكمياء ←— الحياة و الطبيعة ←— الإنسان و الثقافة.

وليفي ستتروس يركز في تحليله لرمزية النار على ما أنتجه الفكر البدائي . فيما نسميه نحن بالأسطورة ، بوصفها نتاجا ثقافيا قابلا للمعاينة و التحليل" فالأساطير و الطقوس ، ليست كما اعتبر البعض نتاجا لملكة خرافية ، بل إن قيمتها الرئيسية ، هي في حفاظها حتى عصرنا هذا ، و عبر أشكال مترسبة على أنماط هذا التفكير و المعاينة التي كانت و لا تزال صالحة لنوع معين من الاكتشافات التي سمحت بها الطبيعة انطلاقا من تنظيم العالم المحسوس و استثماره التفكيري بصيغ المحسوس نفسه "[1]

و لتحقيق هذا الترابط بين ما هو طبيعي و ما هو فكري فرق ليفي ستروس في التفكير الأسطوري بين وظيفتين هما : التصور و الإدراك " أما التصور فيستحيل انتزاعه من الوضعية المحسوسة التي ينشأ ضمنها، فيما يستلزم الإدراك أن يضع الفكر مشاريعه و لو مؤقتا بين قوسين "[2] و هذا يعني أنه لا بد أن توجد علاقة من نوع ما بين ما هو طبيعي و ما هو ثقافي و هذا بدوره يتطلب من الباحث استحضار أدوات دراسته و المرتبطة بعلوم مختلفة لأن " العالم لا يحاور قط طبيعة خالصة ، بل علاقة تقوم بين

[1] - ليفي ستروس – الفكر البري ص 37 .
[2] - المرجع نفسه ص 38 .

الطبيعة و الثقافة ، تحددها الحقبة التاريخية التي يعيش خلالها ، و الثقافة التي ينتهي إليها، و الوسائل المادية التي يملكها "[1].

و في هذا السياق حاول ليفي ستروس أن يعطي مقاربة لرمزية النار أنطلاقا من الميثولوجيا أو الأساطير التي تصل إلى طبائع الطاولة و التي ترتبط بدورها بالموقد الذي يسخن فيه القدر .هذه الرموز حاول التقرب منها في كتابه. " النيء و المطبو[1]خ " le cru et le cuit .

و انطلاقا من عنوان هذا الكتاب تظهر ثنائية الطبيعة و الثقافة إذ" بالفعل يبدي المطبخ علاقة من الدرجة الأولى بين اللحم الطبيعي و النار (ثقافة)[2] " و لذلك فهو يرى بأن الطبيعة لا يمكنها الانتقال إلى الثقافة إلا إذا عرفت تحولا من نوع ما على يد الإنسان فمثلا النباتات الزراعية الكامنة أصلا في حالة النيء لا تنتقل من الطبيعة إلى الثقافة إلا إذا خضعت لفعل الطهي " .[3]

و عملية الطهي تجرنا إلى الحديث عن رمزية النار و الوظائف التي تقوم بها فقد فرق ليفي ستروس بين "النار السماوية المقدسة و المهدمة و النار الدنيوية و البانية ما دامت هذه الأخيرة خاصة بالخدم ".[4]

فالنار السماوية يتحصل عليها بتركيز أشعة الشمس على الزبد الجاف بواسطة مرآة حديدية أوقطعة بلور و هذه النار تستعمل إلزاميا في التضحيات (القرابين) في

---

[1] - المرجع نفسه ص 40.

-[2] Claude Levi-Straus.Du Miel aux cendres Librairie plon Paris 1966 p 259
-[3] bid.p258-259
[4] -I bid p350

حين أن النار المتحصل عليها باحتكاك قطعتين خشبيتين و المسماة" أرضية" لا بد أن تسخر في الطهي أو لاستعمالات منزلية أخرى و هذه الطقوس النارية يرجعها ليفي ستروس إلى حقب قديمة جدا " على الأقل 2000 سنة قبل الميلاد ولكي يستمر هذا التواصل بين السماء و الأرض ، عرف الإنسان منذ القديم طقوسا احتفالية عند بداية كل سنة جديدة " تطفئ فيها النيران "الأرضية بالقدر الذي يخلق الفراغ الضروري الذي يسمح للنار السماوية أن ترتبط بالنار الأرضية من دون حدوث أي مخاطر "[1].

ب - التحليل النفسي لرمزية النار:

لقد أفرضنا هذا المبحث عن رمزية النارعند باشلار لأنه من أكثر الباحثين الذين اقتربوا من الموضوع عندما لاحظ أن التمثل الذاتي يلعب دورا مهما في ترابط الرموز و محركاتها و هو " يفترض أن أحاسيسنا تلعب دور الوسيط بين عالم الأشياء و عالم الأحلام [2]" و لهذا السبب وجه باشلار انتقادا للتفسيرات العلمية الحديثة عن رموز النار لأنه يعتبرها" صادرة عن عقلانية جافة وسريعة تزعم أنها تستفيد من بداهة متكررة[3]" و لأنها تجرد الظاهرة من حالتها السيكولوجية التي أحاطت بها . وهكذا يمكننا التفريق بين نوعين من التحليل النفسي للنار :

1- التحليل العقلي الذي يمثله علماء النفس التحليليين و في مقدمتهم يونج.

2- التحليل القائم على الموضوعية و الذاتية الذي يمثله باشلار .

---

[1] - CL straus . Du Miel aux cendres p350

[2]– جلبير دوران - الأنتروبولوجيا–ص16.

[3]– غاستور باشلار النار في التحليل النفسي ص25.

و هذا يعني أن باشلار أخذ نهجا آخر في التحليل النفسي يقتضي البحث عن الباطن فيما هو ظاهر* . هذا المنهج الذي سلكه باشلار لا ينفي وجود الكبت الذي يرى فيه ظاهرة صحية أكثر منه ظاهرة مرضية في النفس " إن الكبت من منظور التحليل النفسي قادر على الوصول إلى النتائج العلمية " إن الكبت قائم في أصل الفكر الإنتباهي، التأملي ، المجرد لأنه ما من فكر علمي بلا كبت "[1] و لأن الكبت عنده قابل للتغيير عندما يأخذ مساره من اللاشعور إلى الشعور عن طريق التصحيح و ذلك من خلال الاعتراف بالأخطاء " الموضوعية" و أن يقر المرء بخطئه معناه أنه يقدم أجلى آيات الإحترام إلى نفاذ بصيرته ، و معناه أنه يجدد حياة ثقافته و يعززها و ينيرها ، و معناه أخيرا أنه يبدي ما في نفسه ويعلنه عند إذ يبدأ الاستمتاع الصرف بما هو روحي"[2].

إن هذا الإتجاه الذي سلكه باشلار قادر على خلق توافق و انسجام بين ما هو ذاتي و ما هو موضوعي و بالتالي فهو قادر على جمع المتناقضات و تفسيرها و تصبح قواعد الأخلاق متممة لقوانين النفس عندئذ" تفاجأ بأن النار التي تلدغنا هي النار التي تنيرنا . و العاطفة التي تصدمنا ، هي للعاطفة نريدها "[3].

و لهذا فقد سمى باشلار المنهج الذي طبقه بمنهج التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية و هذا المنهج يتعلق بالكشف عن عمل القيم اللاشعورية القائمة على أساس المعرفة التجريبية العلمية و الأمر هنا يتعلق كما سماه.

---

* و يعني هذا البحث عن اللاشعور في الشعور و عن القيمة الذاتية في البداهة الموضوعية و عن الهاجس في الخبرة .

[1]– غاستور باشلار النار في التحليل النفسي ص92 .

[2]– نفسه ص92..

[3]– غاستور باشلار النار في التحليل النفسي ص92.

" بلا شعور الروح العلمية " و بالتالي فإن دراسة رمزية النار ينطلق من الملاحظة التي توصل إليها في اعتبار أن النار كائن اجتماعي أكثر مما هي كائن طبيعي لذلك " فإن احترامنا للنار جاء عن طـريق التلقين ، و لم يـأت عـن طـريق الطبيعة"[1].

و على هذا الأساس فسر باشلار سبب الخوف من النار عند الأطفال التي ترتبط بالنواهي الاجتماعية أكثر مما ترتبط بالحرق كفعل طبيعي و يمكن أن نستدل على ذلك بمثال " فإذا ما دنا طفل بيده من النار ، يقوم أبوه فيضربه بالمسطرة على أصابعه ، فالنار تضرب دون أن تكون بها حاجة لأن تحرق .

هكذا نجد أن النار هي موضوع حضر عام مبدئيا سواء أكانت لهيبا أو مصباحا أو فرنا ، فإن يقظة الأبوين تظل نفسها. ومن هنا كان الحضر الاجتماعي هو معرفتنا العامة الأولى عن النار، و بمقدار ما يكبر الطفل تتخذ النواهي إليه صفة روحية ، فالانتهار، يحل محل الضرب بالمسطرة . و الحديث عن أخطار الحريق و الأساطير عن نار السماء محل الانتهار، و هكذا لا تلبث الظاهرة الطبيعية أن تشملها المعارف الاجتماعية المعقدة ، المختلفة ، التي لا تدع مجالا للمعرفة الساذجة بالمرة *.

و على ضوء هذه الفرضية العلمية حلل باشلار الرموز النارية على أساس أنها مجموعة من العقد المرتبطة بالحضر الاجتماعي للنار في مرحلة الطفولة و التي تم تصنيفها كما يلي:

---

[1] ـ نفسه ص 19.

* ـ سنأكد هذا التحليل الذي ذهب إليه باشلار عند دراستنا الميدانية لمجموعة من الأمثال الشعبية التي تأخذ في معظمها معنى النواهي الاجتماعية.

- عقدة بروميثيوس (النار و الاحترام).

- عقدة أمبيدو كليس (النار و الهاجس).

- عقدة نوفليس (التحليل النفسي للنار و ما قبل التاريخ).

ب - رموز النار:

* النار و التطهير:

النار هي من بين العناصر التي تستخدم في طقوس التطهير و كلمة"طاهر" التي هي أصل كل الطهارات تعني"النار" في اللغة السنسكريتية. و من هنا كانت كل الموجودات التي هي من أصل ناري ذات بعد قدسي مطهر مثل القمر و الشمس و النجوم فمارسيا إلياد يرى بأن الرمز التطهيري للنار ارتبط بالفكر البدائي"إذ كان الإنسان في مرحلة ما قبل النار يطهي طعامه تحت الشمس فالطبقة العليا الناضجة منه كان يأكلها الرجال بينما تأكل النساء الطبقة السفلى النيئة التي لم تتعرض لأشعة الشمس[1]" .

فهذا الاعتقاد يؤكد ذلك التصنيف البدائي للجنس البشري فالرجال يرمزون إلى الطهارة ولذلك يتناولون غذاءهم بعد تطهيره أما النساء فيرمزن إلى النجاسة لذلك فهن يأكلن الغذاء غير الطاهر.

ولم تعد الطهارة عند البدائيين تختص بالإنسان, ولكنها امتدت إلى الاعتقاد في طهارة الأرض. حينما كان يؤكد" بأن الأرض تتطهر من أوضارها بعمل براكينها

[1] – مارسيا إلياد المقدس و الدنيوي ص.82.

الخيرة"[1] هذا المفهوم التطهيري للنار عرفه الإنسان منذ العصور القديمة فقد كتب فرجيل في إنياذته " أن الأرواح طهرت بالنار. و من الطقوس المعروفة عند الرومان " أنهم كانوا يشعلون أشواكا و يقفزون عبر اللهب المقدس للتطهير".[2]

لكن السؤال المطروح لماذا هذا الاعتقاد في التطهير بالنار دون غير امن الموجودات ؟ و لماذا أخذت النار صفة التقديس؟

للإجابة على هذه التساؤلات ينبغي أن نعرف أن مشكلة معرفة النار هي مشكلة حقيقية في البنية النفسية ذلك أن مشكلة النار البسيكولوجية" تبدو مشحونة بتناقضات عديدة يمكن أن تفسر عن طريق التصعيد الجدلي"[3] .

هكذا نجد أنفسنا عند الحديث عن النار و التطهير أمام جدلية ظاهرة هي جدلية"الطهارة" و"النجاسة" ، اللتين تعزيان إلى النار، و قبل ذلك علينا أن نميز في هذا المقام بين نوعين من الدلالات الرمزية للنار هي النار المقدسة ، و النار النفعية ، فإن كانت الأولى تستعمل في المعتقدات ، و الطقوس الدينية ، ذات الصلة الوثيقة بالجانب الروحي والعقائدي عند الانسان ، فان الثانية نجدها حاضرة فى الكثير من الاستعمالات اليومية ، لحاجة حسية كالطهي و الحدادة ...

و حتى نفهم هذا الإنتقال من المادي إلى الروحي أو العكس ، علينا أن نتبع المسار الأنتروبولوجي لتقديس النار. فباشلار يرى بأن النار تنتقل من منظوماتها الصغرى إلى منظوماتها الكبرى" لأن المتأمل الحالم انطلاقا من شعلة يدرك بأن العالم

---

[1]– غاستور باشلار –شعلة قنديل ص39.
[2]– فليب لسفانج – الرموز في الفن و الدين و الحياة ص339.
[3]– غاستون باشلار النار في التحليل النفسي ص93.

في مكنون سره ينشد المصير التطهيري"[1] فحسب هذا المفهوم نجد بأن أي مادة قابلة للاحتراق و منتجة للنور فهي تتطهر بفعل إنتاجها للنور بالذات يقول باشلار" إن النار تتطهر في فعل إنتاجها النور.إن هذه الدناسات بالذات تقدم النور المحض فيما هي تتلاشى على هذا النحو فيكون الشر غذاء الخير"[2].

هذا الانتقال الجدلي يمكن أن نلاحظه أيضافي طريقة إشعال النار ، إن توليد النار يرتبط من الناحية التقنية بحركات بشرية وبأدوات مختلفة سبق الإشارة إليها في الفصل الاول إذ نجد أن هناك وسيلتان أساسيتان متناقضتان ظاهريا للحصول على النار و هما القدح و الاحتكاك و لكن ما يهمنا هنا هي الوسيلة الأولى فقط ، لأن النار المطهرة قريبة نفسيا من السهم الناري . من الطلقة السماوية المشعة التي يشكلها البرق و ما القدحات المختلفة سوى اختصار لوميض البرق الخاطف أما توليد النار بالاحتكاك فإنه ينتمي إلى كوكبة رمزية مختلفة تماما سيتم التحدث عنها عندما نتطرق إلى عنصر التار و الجنس.

كما يمكننا أن نلاحظ بأن الطهارة بالنار يمكن أن تظهر من خلال ما تقوم به النار من عزل للمواد و القضاء على التلوثات المادية ، فالنار تعمل على تصفية المعادن و تخرجها أكثر نقاء مما كانت عليه هذا المفهوم التطهيري للنار نجده في ظاهرة تكاد تكون عامة عند جميع الشعوب و المرتبطة بالزراعة و خاصة تلك المجتمعات التي لا تزال تمارس حتى اليوم نوعا من الزراعة البدائية فهي تلجأ مباشرة بعد الحصاد إلى حرق الأراضي" فالنار لا تبيد الأعشاب الضارة و حسب بل هي أيضا تغني الأرض وسيان إن كانت النار تنقل إلى الأرض قوة خفية ونسغا مخصبا ، أم كانت تطهرها

---

[1]– غاستون باشلار – شعلة قنديل ص98.
[2]– غاستون باشلار – شعلة قنديل ص61.

و تتشف رطوبتها الزائدة أو تفتح المسام التي تحمل النسغ إلى جذور النباتات الجديدة ، أم تصلب التربة و تضيق الأوردة البالغة الإنفتاح وتغلق المدخل أمام الأمطار الزائدة أو أشعة الشمس المحرقة"[1] إن هذا التفسير العلمي لعملية حرق بقايا النباتات داخل الأراضي الزراعية لم يكن معروفا عند الإنسان البدائي لذلك كان يعتقد في وجود كائنات شريرة تمنع عنه تخصيب الأرض و للحصول على الإنتاج الوفير ، و بالتالي كان لابد من تطهير الأرض من تلك الأرواح و الشياطين عن طريق النار . و هناك طقوس احتفالية قريبة من هذا الطقس ذكرها فليب اسفانج في كتابه الرموز في الفن و الدين و الحياة منها أن الأيرلنديين يحتفلون بعيد "بالتين" الذي يتضمن اسمه" Tene" التي تعني النار، و هذا في أوّل مـــايـــو من كل سنة إذ يشعل الكهنة نيرانا كبيرة ، و يكرهوا الماشية لتعبر النار ، كي يجنبونها من أخطار الأمراض التي تهددها في الفصل الحار، و حمايتها من الشياطين التي تسبب لها الأمراض . و يضيف بأن النيران كانت توقد في بلدان كثيرة من العالم في فترة الانقلاب الشمس و كان يجري الرقص حولها من الفرح و لم تتمكن المسيحية من إيقاف هذه الممارسات الوثنية فسمحت بها أو مسحتها* في بعض الأحيان و هذا ما يفسر تقديس "نار القديس" يوحنا في ذات التاريخ أي اليوم الأول من شهر ماي من كل سنة.

إننا من خلال جمعنا لهذه الطقوس ، لا نحاول أن نثير مشكلة لاهوتية متعلقة بالتطهير بواسطة النار و إنما نثير التطهير حسب ترسخه في الذاكرة الشعبية من معتقدات و طقوس .

---

[1]- غاستور باشلار – النار في التحليل النفسي –ص95.

*- أنظر فليب اسفانج الرموز في الفن و الدين و الحياة ص340.
مسحتها : يعني أن جعلتها منم طقس ديني في الديانة المسيحية .

هذه النار في المفهوم الديني هي تمثلا للطهارة من الذنوب فقد جاء في العهد الجديد على لسان المسيح"أنا أعمدكم بالماء و لكن يأتي من هو أقوى مني فيعمدكم بالروح القدس و النار"[1].

إن تقديس إشعال النيران لم يخمد في وقتنا الحالي سواء في أوربا أو في شمال أفريقيا كما نجد ذلك في الجزائر عندما نتحدث في الدراسة الميدانية التي قمنا بها عن نار العنصرة.

كما نجد هذه الطقوس في منطقة جنوب شرق آسيا و التي لا تقتصر على تقديم قرابين بل تتعداها إلى الانتحار بواسطة النار و قد فسرها فليب اسفانج بأنها ترجع إلى نص قديم يؤكد على" أن من لديهم معرفة بالنار سوف يولدون لكي لا يموتوا بعد"[1] و كيفما كانت التفسيرات الكثيرة و المتناقضة في بعض الأحيان دليلا على وجود قيمة بدائية مسلم بها فإنها تدل على الأفكار المتعلقة بالقضاء على الشر و إنتاج الخير و هو قابل إذن" لأن يعلمنا الجدلية الصحيحة للتطهير الموضوعي" [2].

*النار و الجنس:

إذا كانت علاقة النار بالجنس ، تبدو من الناحية العقلية و العلمية غير واضحة، إلا أنها من الناحية النفسية و الذاتية ، تفرض وجودها علينا فرضا. فهي لا تزال مستمرة في مخيالنا الشعبي عبر بعض الطقوس أو التعابير الشعبية فإذا قال أحد بالتعبير العادي "إني مشتعل*" فهذا يعني أنه يشعر بحرارة داخلية في جسمه.

---

[1]- كتاب الحياة – أنجيل لوجا ص1613.

[1]- فليب اسفانج ص340 .

[2]-المرجع نفسه ص 340 .

* هذه العبارة يقابلها في العامية الجزائرية عبارة "راني قادي"

فالاحتكاك الروحي ، قد يكون سابقا على الاحتكاك الجسدي ، و الذي نطلق عليه اسم الحب أو العشق " فالحب هو الفرضية العلمية الأولى للإنتاج الموضوعي للنار "[1].

و قد حلل غاستور باشلار في كتابه النار في التحليل النفسي العلاقة الوطيدة بين الجنس و النار " فثلث الكتاب قد خصصه لبيان الروابط النفسية و الشعرية بين النار البدائية و الجنس[2] " و في اعتقاده أن أغلب من تحدثوا عن إشعال النار بالاحتكاك لم يتوصلوا إلى ملاحظة هذا الأمر باعتبار أن الكوكبة الرمزية هنا تتشكل من نوازع أكثر حميمية مما تظهره الملاحظة الموضوعية. و لأن الأمر هنا يتعلق بحالة شعورية نحسها من غير أن تترك أثرا واضحا نلاحظه عن طريق المشاهدة " فالمعنى الجنس للنار عام عند جميع الناس فهي متعلقة" بطريقة الاحتكاك من أجل خلق النار بطريقة الذهاب و الإياب و هي صورة العلاقة الجنسية " [3] لذلك يرى غاستور باشلار بأن المحاولة الموضوعية لإنتاج النار بالاحتكاك إنما أوحت بها اختبارات داخلية تماما و على هذا الأساس فسر أسطورة برومتيوس على أنه " عاشق متيم أكثر منه فيلسوفا متأملا و أن انتقام الآلهة لهو انتقام ناشئ عن الغيرة " [4] هذه الملاحظة أو الفرضية فتحت للعلماء مجالا واسعا لتفسير عدد كبير من الأساطير و العادات مثلما نجد ذلك عند جلبير دوران عندما قال " إن جنسية النار هي في كثير من الأساطير مرتبطة بمؤخرة الحيوان أو الإنسان " [5].

---

[1]– غاستور باشلار: التحليل النفسي للنار ص26.

[2] - المرجع نفسه ص 26 .

[3] - jean chevalier. Dictionnaire des symboles Ed : Bouquins 1986.p435

[4]– غاستور باشلار : النار فيب التحليل النفسي ص27 .

[5] - [1]–جلبير دوران: الأنتروبولوجيا أسلافها و رموزها ص34 .

و في هذا المعنى استشهد دوران بأسطورة من فولتا العليا تتحدث عن أصل النار و تظهر التماثل الجنسي مع ولادة النار ، فمالك النار الصبي نيكيلي Nekili عرف كيف يولد النار من الخشب بجعله المشعل يدور على نفسه بسرعة و مهمة هذا الصبي تأمين الخصوبة "[1].

إن عمل هذا الصبي يتمثل في وظيفتين هما : إشعال النار و تأمين الخصوبة لدى الجنس البشرية و هي عملية لا تقوم إلا على الفعل الجنسي و هكذا تبدو علاقة النار بالجنس واضحة في هذه الأسطورة ، فنار الجنس تؤدي بطبيعة الحال إلى الإخصاب و بالتالي فهي تشير إلى رمزية الأبناء .

نفس الرأي ذهب إليه مارسيا إلياد في كتابه المقدس و المدنس عندما راى بأن " النار أصلها إلاهي أو شيطاني ، و في بعض المعتقدات القديمة تتولد سحريا من الجهاز التناسلي "[2].

و مهما كانت التفسيرات التي قدمها العلماء عن أصل* النار فإنها تؤكد هذه العلاقة الوطيدة بين الجنس و النار سواء لدى علماء الأساطير أو المحللين النفسانيين و إن كان باشلار يفضل التفسير المستند إلى التحليل النفسي مهما بدا متسما بروح المغامرة من أن يكون هو التفسير البسيكولوجي الصحيح ، فهو يرى بأن المحاولة الموضوعية لإنتاج النار بالإحتكاك إنما أوحت بها اختبارات داخلية تماما "[3] و هذا عكس ما يراه بعض علماء الأنتروبولوجيا بأن اكتشاف الإنسان للنار كان من خلال

---

[1] - جلبير دوران: الأنتروبولوجيا أنساقها و رموزها ص34 .

[2] – مارسيا إياد المقدس و الدنيوي ص 157 .

*- لقد أورد جيمس فرايزر في كتابه أساطير أصل النار قصة امرأة سحبت من بين فخذيها نارا أخذت تطهو بها الأكل في وعاء ثم أطفأت النار بعد ذلك

[3] - غاستور باشلار: التحليل النفسي للنار ص27.

ما رآه في الطبيعة أو عن طريق الصدفة. لكن الأمر الذي يهمنا نحن في هذا الموضوع هو إيجاد التفسير العلمي للعديد من الأسئلة المطروحة في الحقل الثقافي منها: لماذا أصبحت النـــار مرتبطة بمشـــاعر الحب ؟ لماذا نمثل الحب المطلق بشعلة منفجرة في مكان القلب ؟ ماذا تعني العبارات التالية : احترق من الصبر ، قلب محترق ، في قلبي نار؟

مثل هذه الأسئلة من أية جهة هي أكثر جلاء ؛ ترى هل هي جلية موضوعيا أم ذاتيا؟ أين هي الخبرة التي حلتها ؟ هل هي الخبرة الموضوعية الناشئة من احتكاك قطعتين من الخشب ؟ أم هي الخبرة الداخلية، الناشئة عن احتكاك أعذب ، احتكاك يشيع اللهب في جسد المحبوب ؟

نعتقد في هذا الباب بأن التفسير الذاتي يكون أكثر وضوحا حتى و إن كان من باب المماثلة أو التمثل فسرعة الإنفعال الذي يحدثه الحب في الإنسان هو مثل سرعة النار :

و الشيء الذي نستخلصه من كل هذا هو أن النار عند الإنسان لم تكن سبيلا نفعيا يستعمل في مجالات عدة من الحياة فحسب بل أصبحت النار عنده مجالا مثقلا بالدلالات و الرموز محملة بابتهاجه وآهاته ، و تطلعاته و إخفاقاته فهي الحياة و هي الموت....

*النار و الحلم :

يلعب الحلم دورا هاما في المخيال الشعبي إذ يتقدم دائما لينبه إلى الأحداث. و يؤثر إلى مظان الخطر أو مظان الانتصار. و تأتي أهمية دراسة الحلم في كونها" أنها متاحة لكل إنسان دون ارتباط بمركز اجتماعي أو وضع يجعله قادرا على القول و التعبير" [1].

فكل الناس يحلمون ، و لديهم جميعا ملكات الحلم العادية ، و على هذا الأساس فإن للأحلام أهمية كبير إذ أن معظمها عبارة عن رموز" و غالبا ما تحتوي رمزية الحلم في شكلها المجازي على معلومات في غاية الأهمية عن أنفسنا و عن مشكلاتنا الذاتية الحالية و المستقبيلة". [2]

و بما أن الأحلام مجالها الرمز فقد تتناولت آراء متباينة و على مر العصور و الحضارات طبيعة الأحلام و من هذه الآراء" أن الأحلام هي التجربة الفعلية التي تخوضها النفس بعد مفارقتها للجسد، إذ تغادرها أثناء النوم و هي تصب نفحة من الإلهام الإلاهي أو عملا من أعمال الشيطان" [3].

لكن يونج يذهب إلى" أن الاحلام لها وجود مرتبط بعالم اللاشعور أو" الخافية " التي بدونها تبدو الأحلام و كأنها فلتة من الطبيعة"[4].

و الحلم عند فرويد هو تعبير عن قوى اللاوعي فهو يرى" أن الحلم يعبر كما يعبر العارض العصلبي، فالقوى التي تحرك حياتنا الحلمية هي رغباتنا اللاعقلنية ففي

---

[1]– فاروق خورشيد الموروث الشعبي ص58.
[2]– إريك فروم – اللغة المنسية ترجمة حسن قبيعي – المركز الثقافي العربي ط1 1995.
[3]–ابن سيرين – تفسير الاحلام الكبير ص8.
[4]– ك.غ.يونغ- علم النفس التحليلي ص39.

خلال النوم تدب الحياة بعدد من الحوافز التي لا نريد أن نعترف لها بحق الوجود عندما نكون مستيقظين بل و لا يسعنا أن نعترف لها بهذا الحق" [1].

و بالتالي فإن الاحلام تشكل همزة وصل بين عالم الشعور و عالم اللاشعور، و إن اختلف علماء التحليل النفسي في إسناد الكثير من طرق العلاج إلى فكرة الأحلام" ففي الوقت الذي يرى فيه البعض بأن الفاعلية النفسية المتبدية في الأحلام هي نفسها التي نجدها في الحياة الواعية يرى البعض الآخر أن الأحلام نفسها ما هي إلا نتاج ثانوي من الفاعلية النفسية لا أهمية لها"[2].

فالحلم إذا هو كل ما يراه الإنسان في منامه، و هي ظاهرة إنسانية ، و حقيقة كونية. خلقت مع الإنسان و ستظل معه إلى ما شاء الله أن يبقى ، و عالمها تتتابع فيه الصور البصرية أو العقلية في إتساق أو غير إتساق يرمز إلى تفاعل مناطق النفس البشرية بمراتبها المختلفة المطمئنة و اللوامة و الأمارة بالسوء *، و مادتها أمثلة منضبطة في التخيل جعلها الله أعلاما على ما كان أو يكون و أيا كانت التعريفات المختلفة للأحلام فهي بحاجة إلى دراسة قصد فك رموزها أو تفسير غموضها، و من هنا كان لابد من وجود المفسر الذي يؤول الأحلام مادام هذا الإنسان يجهل الرمز الذي يقف خلف الصورة التي يراها في الحلم ، و بالتالي فإن دراسة الأحلام ، تخلق منذ بدايتها مشكلة في المصطلح الذي يستخدمه كل دارس ، فمن مصطلح التفسير، إلى

---

[1]– سيجموند فرويد – نظرية الأحلام – ترجمة جورج طرابيشي – دار الطليعة للطباعة و النشر ط2 1982 ص16.

[2]– ك غوستاف يونج علم النفس التحليلي ص39.

* تم تصنيف هذه المراتب على ضوء ما ورد في القرآن الكريم النفس المطمئنة لقوله تعالى" يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية و ادخلي في عبادي و ادخلي جنتي".
و النفس اللوامة لقوله تعالى" و النفس الأمارة بالسوء لقوله تعالى:" و إن النفس لأمارة بالسوء".

مصطلح التأويل ، إلى مصطلح الفهم* .. مع ذلك فهناك اتفاقا بين جميع هذه المصطلحات لكونها تنطلق من أرضية واحدة هي هذا الإنسان الذي يبتدع تلك القصص التي يراها في الأحلام و التي لاتمت بصلة إلى الواقع في بعض الأحيان كما أن الأحلام التي يراها الإنسان تتصف بأوصاف مشتركة فهي لا تخضع لقوانين المنطق التي تحكم فكرنا أثناء اليقظة، فهي تجهل مقولتي الزمان و المكان جهلا مطلقا، فهي ترينا الأموات أحياء يرزقون .

و هي تجهل و جودنا حاضرا في مكانين اثنين و في نفس الوقت" و في الواقع أن المرء يبتدع أثناء الحلم عالما لا يقيم وزنا للزمان و المكان"[1].

إن الحلم باعتباره عملية معقدة و صعبة الفهم أدى الى ظهور العرافون و الكهنة والمفسرون ، ولعل أشهر كتب تفسير الأحلام ، كتاب ابن سيرين الذي ظل يتناقل جيلا عن جيل حتى وقتنا الحالي والذي يمكن أن نطلق عليه اسم التفسير الديني للحلم ، إذا ما قرأناه بالتفسير الحديث الذي ارتبط بظهور مدرسة التحليل النفسي عند فرويد و من هنا أصبح من الواجب علينا أن نبين طرق كلا التفسيرين و علاقتهما بالنار :

التفسير الديني لحلم النار:

يرتبط تفسير الأحلام عند ابن سيرين بالرموز الواردة في القرآن الكريم و ليس بالرموز المتوارثة عن الأجيال يقول على المفسر أن يكون "عالما بكتاب الله تعالى

*- مصطلح التأويل يرتبط في غالبا الأحيان بالجانب الديني كما نجده عند لابن سيرين أما التفسير ارتبط بمدرسة التحليل النفسي في حين أن مصطلح الفهم وجدناه عند إريك فروم في كتابه اللغة المنسية.

[1]-فاروق خورشيد فلموروث الشعبي ص11 .

حافظا لحديث **الرسول (ص)** خبيرا بلسان العرب و اشتقاق الألفاظ عارفا بهيئات الناس ضابطا لأصول التعبير" [1].

وقد قسم ابن سيرين الرؤيا إلى قسمين عندما قال" اعلم – وفقك الله – أن مما يحتاج إليه المبتدئ أن يعلم أن جميع ما يرى في المنام على قسمين:

فقسم من الله تعالى و قسم من الشيطان ، لقول **الرسول(ص)** " الرؤيا من الله و الحلم من الشيطان "[2].

أما تفسيره للنار فقد ورد في كتابه " تفسير الأحلام الكبير " في الباب الثاني و الأربعون و هذا التفسير كما قلنا لايكاد يخرج عن التفسيرات التي أعطاها مفسروا القرآن الكريم لدلالات لفظة النار الواردة في الآيات القرآنية. فالنار دالة على السلطان لجوهرها و سلطانها على ما دونها، مع خيرها و نفعها. و ربما دلت على جهنم نفسها و على عذاب الله .و ربما دلت على الذنوب و الآثام والجرائم و كل ما يؤدي إليها و يقرب منها من قول و عمل.و للنار دلالة أخرى هي الاهتداء إلى طريق الحق، " لأن بها يهتدى في الظلمات لقول موسى عليه السلام في القرآن الكريم " أو أجد على النار هدى"[3] .

فوجد و سمع كلام الله تعالى عندها بالهدي ، و هي تدل أيضا على المنفعة من أرزاق و فوائد وغنى ، لأن بها صلاحا في المعاش للمسافر و الحاضر كما قال الله عز و جل" نحن جعلناها تذكرة و متاعا" .[4]

---

[1]– محمد بن سيرين تفسير الأحلام –دار الكتاب الحديث– ط5 1997 ص14.
[2]– نفسه ص14.
[3]– سورة طه الآية 10.
[4]– سورة الواقعة الآية 73.

و رؤيا النار و هي تنطفئ دليل على المصائب فيقال لمن افتقر أم مات: خمدت ناره و هذا الاستعمال لا يزال ساريا في المخيال الشعبي العربي بشكل عـــام و الجزائري و التلمساني بشكل خاص تؤكده عبارة " انطفأت ناره " تقال هذه العبارة لمن مات أو افتقر أو ذل بعد عزة. و ربما يرجع هذا المثل إلى الدائرة الشعبية العربية لأن العرب كانت توقد النار هداية لابن السبيل و الضيف المنقطع، كي يهتدي بها، ويأوي إليها ، و بالتالي فهم يعبرون عن وجودها على وجود الجود و الغنى وبخمودها إلى البخل والفقر:

هذا التناقض في المعنى يؤكده ابن سيرين بقوله" أما من رأى النار عنده في تنور ، أو فرن أوكانون أو نحو ذلك من الأماكن التي يوقد فيها. فإنها غنى أو منفعة تناله ، سيما إذا كانت معيشته من أجل النار ، وسيما إذا كان ذلك أيضا في الشتاء ، و إن رأى ناره قد خمدت أو أطفئت أو صارت رمادا أوأطفأها ماء أو مطر فإنه يفتقر و يتعطل عنه عمله و صناعته"[1] .

" أما من يرى النار تتكلم في جرة أو قربة أو وعاء من نار الأوعية الدالة على الذكور أو الإناث، أصاب المنسوب إلى ذلك الوعاء صرع من الجن ، و داخله جني ينطلق بلسانه"[2].

و النار في الرؤيا قد تدل على الفتنة و السيف إذا كان لها صوت و رعد و ألسنة و دخان ، فإن كانت جمرا بلا ألسنة فهي أمراض أو جذري أو وباء.

---

[1] . ابن سيرين تفسير الأحلام ص457.
[2]– ابن سيرين تفسير الأحلام ص458.

و لم يقتصر ابن سيرين على تأويلات النار لوحدها بل ذهب إلى كل ما يتصل بها من حطب و شعلـة و فتيلة و دخـــان ...." فالكي بالنـــار لذعة من كلام السوء ، و الشرارة كلمة سوء ، و من تناثر عليه الشرر سمع من الكلام ما يكرهه. و من رأى بيده شعلةمن نار ، أصاب سعة من السلطان ، فإن أشعلها في الناس أوقع العداوة بينهم ، و أصابهم بضرر و الرماد هو الكلام الباطل الذي لا ينتفع به.

و هذا قريب من المعنى المستعمل في الأمثال الشعبية عندنا لما يقال للإبن الذي لا نفع فيه و لا انتفاع منه عبارة" النار تجيب الرماد".

أما تأويل الدخان عند ابن سيرين فهو هول و عذاب من الله و عقوبة من السلطان و من رأى دخانا يخرج من حانوته ، فإنه يقع في خطب يعد هولا و فضيحة. و الحطب نميمة ، و إيقاده بالنار سعاية إلى السلطان و يرجع هذا التأويل لقوله تعالى" و امرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد".[1]

و الفحم من الشجر رجل خطير و قد روى ابن سيرين رواية عن ذلك نقد" رأي سيف ابن ذي يزن كأن نارا هوت من السماء إلى أرض عدن. و سقط في كل دار من دورها جمرة فانطفأت وصارت فحمة ، فقصها على معبري مملكته ، فقالوا : إن الحبشة تستولي على بلدك فكان ذلك".[2]

هكذا نجد أن تفسير ابن سيرين للنار لا يكاد يخرج عن المعنى الاصطلاحي الذي تؤديه لفظة " النار".

---

[1]ـ سورة المسد الآية 4.
[2]ـ ابن سيرين- تفسير الأحلام ص461.

حسب ما ذكره الشراح و مفسروا القرآن الكريم و إن كان ابن سيرين ينزع في بعض الأحيان إلى التفسير بالقلب" بالضد" أو التفسير الحسي القائم على اللمس و الشم و البصر..

إن هذا التفسير المفتوح على تأويلات كثيرة وجد فيه ابن سيرين صعوبة كبيرة في التفسير باعتباره عملية معقدة لايمكن أن نفهمها خارج السياق العام أو حالات صاحبت صاحب الحلم قبل وقوعه و أثناءه و بعده يقول" تصوغ النفس الحالمة أحلامها من المنبهات أو المؤثرات الحسية ، أو النفسية التي تكون لها علاقة بأحداث اليوم السابق أو الأيام السابقة للحلم ، ومن مؤثرات عقلية أو روحانية لها علاقة بأحداث الحاضر أو المستقبل للرؤيا المنامية" [1] و هذه التقديرات في تأويل الأحلام عند ابن سيرين تذهب بعيدا عما ذهبت إليه مدرسة التحليل النفسي كما سنرى الآن.

التفسير العلمي لحلم النار:

ارتبط هذا الاتجاه بعالم النفس سيجموند فرويد عندما صدرت له طبعة تفسير الأحلام ستة 1901، و التي توصل فيها إلى أن صور الأحلام كما تظهر للحالم ماهي إلا رموز لأشياء أو تجارب أوحوادث أخرى يستعصي على الحالم معرفة معانيها و دلالاتها و بأنها كذلك تقتضي التفسير، و ذلك بإرجاعها إلى أصولها، وقد ذهب فرويد إلى أبعد مما ذهب إليه سابقوه ، حيث أنه حاول التوصل إلى فهم طريقة تكوين رموز الحلم و هدف هذا التكوين ، و هي محاولة لم يقدم عليها أحد من قبل..*

---

[1]– ابن سيرين – تفسير الأحلام – ص10.

*– أنظر مقدمة كتاب نظرية الأحلام سجموند فرويد.

ويرى يونج بأن المبدأ الأول الذي يحكم تفسير الأحلام عند فرويد ينبع من فهمه للنفسيات بشكل عام هذا المبدأ ينص على أننا ننطوي في دواخلنا على قوى و مشاعر و رغبات ، فهي التي تملي علينا أفعالنا رغم أننا لا نعي منها شيئا ، و هذه القوى سماها فرويد بـ " اللاوعي".فالحلم عنده إذن تعبير عن قوى اللاوعي فهو يرى أنه يعبر كما يعبر العارض العصابي" القوى التي تحرك حياتنا الحلمية هي رغباتنا اللاعقلانية، ففي خلال النوم تدب الحياة بعدد من الحوافز التي لا نريد أن نعترف لها بحق الوجود عندما نكون مستيقظين بل و لا يسعنا أن نعترف لها بهذا الحق".[1]

ففرويد يربط بين نظرية الأحلام و وظيفة النوم.فالنوم فيما هو ضرورة جسمانية للجسد الحي يسعى"لأن يؤمن لنا أكبر قدر ممكن من الطمأنينية. فإذا شعرنا في نومنا فتلك الرغبات العنيفة فإنها تنغص علينا مضاجعنا كما يقال, فنستيقظ و الحالة هذه من نومنا: مثل صورة العطشان الذي يرى في حلمه أنه يشرب الماء".

ففي هذا المثال إشـــارة إلى أن الحلـــم توجهه غرائـزنا ، غـــريزة الحيـاة و الموت ، غريزة الجوع و العطش وبشكل أكثر الغريزة الجنسية . إن ربط فرويد الأحلام بالغريزة الجنسية كان محط إنتقاد من طرف العديد من النقاد بل و حتى من تلامذته فإريك فروم يقول في كتابه اللغة المنسية " إن هذه الطبيعة المتعلقة بمضمون الحلم قادت فرويد إلى فهم لغة الحلم فهما أضيق بكثير من الفهم الذي إقترحه أثناء دراسة اللغة الرمزية فمعظم الرموز في رأيه هي من طبيعة جنسية"[2].

---

[1]– سيجموند فرويد- نظرية الأحلام ترجمة جورج طرابشي – ص45.
[2]– إريك فروم اللغة المنسية – ص 67.

لأن المجتمع في نظر فرويد " يشكل الرقيب الذي يساعد المرء على كبح ميوله اللأخلاقية و اللامجتمعية وتتم هذه العملية التي تتحول النواحي السيئة بموجبها إلى نواح حسنة يسميها فرويد " التكوينات الارتكاسية" "و التصعيد"[1] .إذا فالرقيب الأخلاقي الذي يقبع في دواخلنا يكون هو الآخر في حالة وسط بين النوم و اليقظة و أن الرغبات اللاعقلانية التي تظهر في الأحلام ينبغي أن تتخذ شكلا تتكريا لخداع الرقيب. و هذا يعني أن تفسير الأحلام عند فرويد لا يمكن أن تخضع إلى طريقة تغييب العقل " إذ تبين أن بعض الأفراد الذين لا يعلمون شيئا عن نظرية تفسير الأحلام بوسعهم تحت تأثير التنويم المغناطيسي أن يفسروا رمزية أحلامهم دون صعوبة تذكر. فإذا خرجوا من تأثير ذلك التنويم و طلب إليهم أن يفسروا الأحلام إياها عادوا حائرين في أمرها و قالوا : " لعمري إنها أحلام بلا معنى و إن هي إلا حماقات "[2].

هذه الفكرة تتخذ أهمية كبيرة في فهم فرويد لمسألة الرموز فهو يعتقد أن وظيفة الرمز الرئيسية هي أن يعمل على تقنيع الرغبة الدفينة و تحوير شكلها. إنه يعتبر اللغة الرمزية كناية عن شفرة سرية كما تعتبر تفسير الحلم كناية عن عمل يرمي إلى الكشف عن سرية هذه الشفرة".

---

[1]– إريك فروم اللغة المنسية – ص 66 .
[2]- إريك فروم اللغة المنسية – ص 23.

النار وفكرة المركز :

نعني بفكرة المركز ، النواة التي تشكل على ضوئها الكون وهي فكرة قديمة قدم الإنسان ، فقد تصوّر الإنسان أنّ مركز الكون ذو طبيعة مائية أو نارية أو حيوانية ، وهذا ما تفسره بعض المعتقدات الدينية أو الأسطورية ، لكن الشيء الذي يهمنا في هذا العنصر إعتقد الإنسان بأنّ الكون ذو طبيعة نارية ؟ .

لقد ارتبطت فكرت هذا الإعتقاد بالتفكير البدائي عند الإنسان عندما اعتبر أنّ النار ليست جسما بالمعنى الدقيق إنّما هي المبدأ المذكر الذي يكسب المادة المؤنثة شكلها وهذه المادة المؤنثة هي الماء " كانت الماء * " البدائية باردة ، رطبة ، وَسِخَة ودنسة معتمة وكان مكانها في الخليقة مكان الأنثى ، وكذلك النار التي كالذكور لا حصر لشررها ، كانت تحتوي على كثير من الصبغات المناسبة لولادة المخلوقات يمكن تسمية هذه النار بالصورة ، كما يمكن تسمية الماء بالمادة . ممتزجين معا في العماء [1]" فحسب هذا القول فإنّ خلق العلم جرى إبتداءاً من جنين وإبتداءاً من مركز ، وسواءاً كان هذا المركز ناريا أم مائيا ، فإنّ هذه الفكرة لاتزال قائمة من اليوم ، " فالمسكن الذي نقطنه يماثل الفتحة المحمولة في أعلى البيت يتطاير الدخان ، وهذا يعادل مركز العالم حتى وكأنّ جميع البيوت ، شأن جميع المعابد والقصور والمدائن تجد نفسها في ذات النقطة المشتركة والوحيدة ، أعني مركز العالم " [2].

---

* لجأنا إلى تأنيث الماء وهو مذكر تماشيا مع المعنى المراد في النص والمعنى الموجود في اللغات الأخرى ، لأنّ جميع اللغات تذكر النار وتؤنث الماء إلا في اللغة العربية فإننا نجد العكس .

[1] محمد عجينة موسوعة الأساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها . ص 212 .

[2] مارسيا إلياد – صور ورموز – ص67 .

3 - النار و الماء:

علاقة النار بالماء قديمة فهي معروفة في كثير من الممارسات و المعتقدات الشعبية باعتبار أن وجودها يعود إلى بداية الخليقة فغالبا ما يجري تصنيف العناصر الأربعة في زوجين متقابلين النار و الماء ، الهواء و التراب.فالنار مذكر و الماء مؤنث و بالرغم من التعارض القوي جدا بين النار و الماء فإن رمزيتهما غالبا ما تكون مشتركة و هناك أمثلة كثيرة يمكن ضربها مثل عجينة الخباز أو الخزاف فكلاهما يحتاج إلى الماء و النار لكي يصنع شيئا واحدا فيلاحظ أنه ما قد ولد في الماء يكتمل في النار.هذه العلاقة أعطت للعنصرين طقوسا معبدية عند قدماء الهنود إذ تمتلك المعابد الهندية حوضا يرمز فيه للماء المقدس للربة (غانجا) نسبة إلى نهر الغنج الذي يستعمل لأعمال الفصح بالماء المقدس و لكثير من الاستحمامات الطقوسية.و يغطى الحوض بالعديد من مصابيح الزيت التي تشعل طيلة الليل و هذا دليلا على الجمع بين الماء المقدس و النار المقدسة.نفس الطقش تقريبا نجده عند البوذيين و الهندوسيين فيما يعرف عندهم " بالتطهيرات النارية ، فبعد العبور بين نيران مشتعلة يلقون في الماء"[1] و هذا الطقس في اعتقادهم يحررهم من الموت و يعاود ولادتهم مع كل شمس جديدة.

[1]- فليب سيرانج- الرموز في الفن و الدين و الحياة ص 335.

أما المعادلة السيميائية الصينية تقول بأن اتحاد النار مع الماء ينتج عنه بخار الماء و هو مؤهل لكي يلعب نفس الرمز من نفس الطبيعة وهذا يعني عندهم التقاء السماء مع الأرض و التي يمكن تمثيلها كما يلي:

النار الصاعدة ←—— سمائي

الماء الهابط ←—— أرضي

كما تحدوا هذه العلاقة عند القدماء المصريين فتظهر من خلال الطقس الاحتفالي الذي يكون على شكل قارب يشق النهر و عليه رجل يحمل شعلة على شكل قرص شمس و هذا الطقس يمارس عند انبعاث الشمس الجديدة و القمر الجديد و هو اليوم الذي يتعادل فيه الليل مع النهار" 21 مارس" و في الحضارة الرومانية نجد علاقة الماء بالنار متجسدة في طقوس الزواج الذي كان عندهم أمرا يتعدى تغيير البيت الأسرية إلى تغيير الديانة في حد ذاتها. فتغير الدين بالنسبة للشابة الرومانية أوز اليونانية التي تترك ديانة والدها المنزلية كي تنقل إلى موقد زوجها و ذلك بعد أن يجري خطفها صوريا حيث توضع الزوجة بحضور الموقد, فتروى بماء طهور و تلمس النار المقدسة . وفي الإسلام نجد بأن النار تشترك مع الماء في كونها أدوات للعذاب يوم القيامة لقوله تعالى "كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم "[1] وهكذا نرى بأن هذه الطقوس تؤكد ما للنار والماء من قوة روحية كانت ولا تزال تمارس سلطتها على المخيال الشعبي عند مختلف الشعوب و الأمم وعلى مر التاريخ لا في كونهما رمزان متعارضان كما يعتقد البعض ولكن بوضعهما رمزان متحدان فالصاعقة التي تجلب الأمطار كانت في الأصل

[1]ـ سورة محمد الآية 15.

نارا" و إذا كان الماء دالا على الهيولى للارتباط بالأرض (بالأصل) فإن النار تدل على الصعود.بلوغ القمة و الكمال الروحي"لأن بلوغ قمة حقيقية يظل هدفا رياضيا".[1]

هذه الرمزية لعلاقة الماء بالنار لازالت مستمرة في العديد من الرسومات التي ترمز إلى الماء بشكل مثلث رأسه إلى الاسفل و إلى النار بمثلث رأسه إلى الأعلى حسب الشكل التالي :

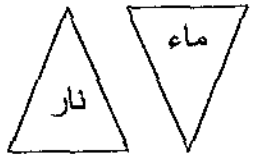

لكن مع ذلك تبدو هذه العلاقة بين الماء و النار غير واضحة وهذا ما يتطلب من البحث الوقوف عند رمزية الماء .

أ - **رمزية الماء:** للماء رمزية غنية جدا يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات رئيسية: مصدر الحياة ، وسيلة تطهير و وسيلة تجدد .

- الماء مصدر الحياة : في كثير من الديانات يكون الماء العنصر البدئي"و أنه في كتلة المياه أو في المحيط البدئي ظهرت الحياة" [2] هذا المفهوم القديم جدا و المنتشر في كل ثقافات الشعوب المختلفة و يكفي في هذا المجال الإشارة إلى الرموز التي أعطاها القرآن الكريم للماء.فهو في البداية أصل الحياة لقوله تعالى "و جعلنا من الماء كل شيء حي" [3]." و الله خلق كل دابة من ماء"[4]و يكفي أن القرآن الكريم قد أعطى للماء قدرة

---

[1]– فليب سيرانج- الرموز في الفن و الدين و الحياة ص 340.
[2]– فليب سيرنج – الرموز – ترجمة عبد الهادي عباس دار دمشق ط1 1992 ص 350.
[3]– سورة الأنبياء الآية 21 .
[4]– سورة النور الآية 24.

تخصيبية فمن خلاله يتكاثر الزرع و الحرث و النسل لقوله تعالى " ثم جعل نسله من ماء مهين"[1].

و الماء الحي صورة غالبا ما تتكرر في العهدين القديم و الجديد"فاليهود الخائفون في الصحراء من الموت عطشا، احتجوا ضد موسى، فضرب هذا صخرة جبل حوريب بعصاه ، بناءا على أمر الرب, فانبجس نبع ماء"[2] و يقول داود إلى يهود في المزمور 36 " فيك أنت نبع الحياة " و يقول المسيح إلى السامريين :"...من يشرب من الماء الذي أعطيه له فلن يعطش إلى الأبد ...بل الماء الذي أعطيه لن يكون فيه ينبوع ماء ينبع إلى الحياة الأبدية"[3].

- **<u>الماء وسيلة تطهير</u>**: الماء يطهر,ذلك هو أمر معروف عالميا,ففي كافة الثقافات تقريبا يستخدم لتطهيرات طقوسية,ففي الهند يجري احتفال عند العام الجديد,يتم فيه غسل تماثيل العبادة,و في مصر على الأقل في العهد المتأخر,كان الكهنة يغتسلون في بحيرة مقدسة قبل الفجر ، مطهرين أجسادهم هكذا ثم يجرون في دورة المعبد مهرقين الماء و مشعلين البخور، و كانت أبواب المعبد تفتح في اللحظة التي تشرق فيها الشمس,و في المسيحية ترى بأن الماء يطهر المذنبين عند تعميدهم و كان العرب قبل الإسلام يمجدون بئر زمزم لقدسيته التطهيرية و لما جاء الإسلام أصبح الماء رمز الطهارة فالوضوء بالماء قبل الصلوات الخمس هو من الشعائر التي تقبل الصلاة بدونها

---

[1]- سورة السجدة الآية 32.
[2]- سفر الخروج 27 -سر-V .
[3]- العهد الجديد كتاب يوحنا ص – 14 .

فالماء في الإسلام هو رمز التطهير لقوله تعالى"و أنزلنا من السماء ماء طهورا" [1] وعند اليهود لا تزال حتى اليوم طقوس التطهير بالماء من الشعائر المسونية حيث تغطس أيدي المرشح في الماء.

الماء رمز الإحياء و التجديد:

ب - <u>النار و الماء و فكرة الخلق</u>: شغلت فكرة الخلق الأول العقل البشري ، منذ إن صار قادرا على التأمل في كنهه ، و في الأسرار العظمى التي أحاطت بخلقه. و لكنه عبثا حاول فقد لازمه الفشل في كل مرة ، لان الإجابات التي كان يقدمها لم تكن شافية ، ولا قادرة على التخفيف من وطأة الأسئلة التي كانت تراوده ، وتقلقه و تهز كيانه فلم يجد مناصا من تكرار عمل الخلق على رأس كل سنة جديدة حالما بحلول مقنعة ، من خلال طقوس و ممارسا يزعم أن الخلق الأول تم على شاكلتها. و لذلك لاتزال فكرة الخلق البدئي حتى اليوم من بين أكبر الاهتمامات التي تدخل في ضروب الخطاب الفلسفي و الخطاب العلمي و الخطاب الأسطوري ، و الخطاب الأخير هو الذي يهمنا في هذا المبحث ، و ذلك بتقديم ذلك التفسير الأسطوري الذي أعطاه الإنسان لخلق الكون ، وخاصة فيما يتعلق بعنصريه الهامين الماء و النار.

فهرقليطس اليوناني *عبر عن فكرة الخلق بما سماه" باللجوس"[2].و اللجوس عنده هو ذلك الجانب الذي يطلع على الموضوعات الطبيعية صورها أو هو نوع من الطابع المشترك ذي البنية الشبيهة بالنار إلى حد ما ، و لقد انقسمت الأشياء في العالم

---

[1] – الفرقان الآية 25.

*- هرقليطس: هو فيلسوف يوناني من أفسوس و هي مدينة يونانية في آسيا الصغرى ولد حوالي 500سنة ق م و هو من أسرة أريستقراطية و قد انسحب من المجتمع و هاجم أهل المدينة و الناس عامة لعيبهم هجوما توسل له بعبارات اشتهرت بغموضها و ذلك لما أخفق الناس في فهم اللجوس(العقل).

[2] – انظر –الموسوعة الفلسفية المختصرة (فؤاد كامل – عبد الرشيد الصادق- جلال العشري) دار القلم –بيروت د ط ص494.

أضدادا ، هذه الأضداد التي تبدو في الظاهر متناثرة ، منفصل بعضها عن بعض ، هي في واقع الأمر" شيئ واحد بعينه " إذ ترتبط برابطة تمتد في الاتجاهين بفضل اللجوس الذي يضمن الاتزان النهائي و استمرار التغيرات بين الأضداد.كما يرى هرقليطس وحدة العالم في تركيبه و سلوكه أكثر مما يراها في مادته و مع ذلك فالنار هي المادة الأولية ، و هي تتحكم في التحولات التي ينتقل بها كل مقوم إلى آخر من مقومات الكون الثلاث الكبرى هي النار و الماء و الأرض و التغير أو الصراع على حد قول هرقليطس كان ضروريا للتوحيد المستمر بين الأضداد.

فهذا التفسير في كيفية خلق الكون عند هرقليطس لا يخرج عن تلك التفسيرات التي أعطاها الفلاسفة * للعناصر الأربعة مع التركيز على عنصر النار باعتباره الأقـــوى لأنه يرجعهـا إلى طبيعة روحيـة تـــارة تكـــون العقـــل و تارة أخرى تكون الله.

و هناك تفسير أسطوري آخر للخلق بواسطة الماء و النار ذكره محمد عجينة في كتابه"موسوعة أساطير العرب" عندما قال"روت الرواة بألفاظ مختلفة و معان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات و الأرض ، خلق جوهرة خضراء أضعاف طبقات السموات و الأرض ، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الـسماء فغلا و ارتفع منه زبد و دخان و بخار فأرعد من خشية الله،فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة . و خلق الله من ذلك الدخان السماء و ذلك لقوله تعالى" استوى إلى السماء و هي

---

*- نقصد بذلك الرواقيين فهم يعتقدون أن الكون الحي مثله مثل العالم الأصغر أو الإنسان له دورة لا نهائية من التغير و سوف تأتي فترة من الاحتراق فيها يتحول كل شيئ إلى النار الإلهية فيصبح روحا خالصة و يختفي الشر ثم تصبح النار بدورها كتلة رطبة منها تبدأ بذور العقل في عمل دورة مماثلة.

دخان" [1] أي قصد إلى خلق السماء و خلق من ذلك الزبد الأرض" [2] فخلافا على ما رأيناه في التفسير الأول في الخلق نرى بأن هذه الأسطورة قد أعطت للماء قوة الخلق أكثر مما أعطته للنار.

أما في باقي الأساطير الفارسية نجد أن إله النار"نيروز" و هو من أكبر الآلهة يبنى له هيكلا ناريا و بالتالي فإن نيروز هو العام الجديد الفارسي و هو ذكرى اليوم الذي حدث فيه خلق العالم للإنسان و من هنا يصبح خلق زمن جديد بعد ما أبلى الزمن القديم الكائن البشري و المجتمع و الكون"إن هذا الزمن المدمر الذي جاء فيه العالم إلى الوجود يتم بواسطة طقوس تطهيرية يتم فيها إقامة زمن جديد و ذلك بإطفاء النيران" [3]

فيهيكل النار هو السنة الجديدة التي يتجدد معها خلق الكون و بهذا المعنى تفسر رمزيته الزمانية.

جـ - بين طوفان الماء و طوفان النار:

لم تهنأ البشرية طويلا بخلقها الأول ، الذي تم بعد عناء و مغالبة حتى تفاجأت برغبة جديدة في تدمير منجزاتها المتواضعة ، من"ماء" و "نار" كانت تظن أنها نزعت عنهما صفات الفوضى و العماء ، و جعلتهما أداة للنماء و الحياة.فقد اهتزت لحدث مروع,أفنى ما بنته من عمران . و ما حققته من انتصارات على من كان يعكر صفو حياتها ، و يذكرها بخطواتها المتعثرة بعد ميلادها العسير.ف " الطوفان " اجتث جذورها ، و أعادها إلى اللحظة التي منها بدأت. و من عجائب الصدف أن تكون وسيلة إفنائها المادة التي منها خلقت. فقد نشأت من "ماء" أو "نار"و كان ضياعها بهما أيضا .

---

[1] ـ سورة الدخان الآية؟

[2] ـ د. محمد عجينة ـ موسوعة أساطير العرب ص2.

[3] - مارسيا إلياد ـ المقدس و المدنس -ص72.

و من ثم حمل الماء و النار معادلة شائكة ، لم يقو العقل البشري الكشف عن أسرارها أو فك شفراتها.

ماء - نار = حياة

ماء – نار = دمار (موت و فناء).

كان الطوفان إذن حدثا استثنائيا في تاريخ الإنسانية. لم تخل منطقة جغرافية فوق الأرض من تأثيره و تداعياته. و في أغلب الأحيان كان "طوفان الماء" هو السبب إلا في حالات نادرة اتخذت "النار" فيها وسيلة للدمار ، و الإفناء . ففي بوليفيا قضت النار" على جميع مظاهر الحياة ، عدا رجل واحد ، لجأ إلى كهف و تـزود بالماء و المؤن الكافية ، و بين الفينة و الأخرى كان يمد عصا طويلة من ثقب صغير في باب كهفه ، فتعود العصا مسودة ساخنة ، فيعرف أن النار مازالت ملتهبة في الخارج ، إلى أن مدها مرة فعادت باردة ، فعرف أن طوفان النار قد انحسر عن الأرض " .[1] لاشك أن إحضار" النار" في أسطورة الطوفان البوليفية ، له ما يبرره ، لدى مجتمع يسكن بقاعا باردة ، الحاجة فيها إلى النار ملحة ، قد تظاهي حاجة للماء في سماء لا تجود عليه إلا نادرا. أو أنها بقايا ديانة مقدسة للنار ، أثير غضبها فكان الانتقام بلهيب يكشف عظمتها، و قدرتها و يؤكد روحها الثائرة حين تمس بأذى,أو يغفل عبدتها على تقديم قرابينهم ، و تأدية طقوسهم ، تثبيتا لألوهيتها.

---

[1] – فراس السواح: مغامرة العقل الأول – سومر للدراسات و النشر و التوزيع –نيقوسيا –قبرص ط6 1986 ص23-24.

و مهما يكن فالطوفان طبع العقل البشري بعلامات لاتمحي أبدا ، و دفعه إلى إعادة حساباته مع طبيعة لا يسلم من شرها ، و قساوتها ، فهو إن استطاع أن يقف على بعض خباياها ، خذلته وجوهها الأخرى في كل مرة فاتخد"الماء"و معه"النار"تبعا لذلك طبيعتهما الروحانية المقدسة ، الناشئة عن قلق دائم من الغضب.

الفصل الثالث

الدراسة الميدانية

تحديد منهجي

ترتبط الدراسة الميدانية التي حاول البحث تقديمها في هذا الفصل بنوع من فروع الأنتروبولوجيا و التي أطلق عليها إسم الأنتروبولوجيا الإجتماعية الثقافية ، و هي التي تدرس الظواهر البشرية بجميع أبعادها، و المتغيرات التي تطرأعليها[1].

هذا النوع من الأنتروبولوجيا يتطلب منهجا خاصا في الدراسة و لأن موضوع البحث يتعلق بدراسة "النار في المخيال الشعبي" حاولنا حصر الموضوع في عينات من بعض التمثلات النارية الأكثر إنتشارا في المجتمع المحلي التلمساني.

و كانت الخطوة الأولى التي قمنا بها في هذه الدراسة الميدانية هو جمع البيانات والمعلومات ، و قد اعتمدت من أجل تحقيق ذلك على أسلوب الملاحظة بالمشاركة وهي تتضمن فكرتين أقام عليهما " بعض الباحثين موقفا ذا طرفين : أحدهما يمثل الإندماج في المشاركة و الثاني يمثل التركيز علىالملاحظة [2]" و من بين شروط نجاح هذا الأسلوب الإبتعاد عن الأفكار المسبقة لدى الباحث أو ميله إلى إضفاء تأويلات متسرعة على كل ما يلاحظه ، هذه الطريقة حاولنا تطبيقها في دراسة بعض المعتقدات الشعبية مثل نار العنصرة ، و بعض الطقوس الدينية ، كظاهرة التعامل مع النار عند أهل الطريقة العيساوية ، و هذا قصد تدوين جميع تفاصيل هذه الممارسات التي تقام لهذا

---

[1]– سيريال بلشاو. تحديات أمام مستقبل الأنتروبولوجيا الإجتماعية و الثقافية .تر. محمد جلال عباس مجلة منشورات ممتقبلية –العدد 19 ص21.

[2]– ينظر كتاب مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان (الانتروبولوجيا) تأليف د. فتيحة محمد إبراهيم و د. مصطفى حمدي الشنواني دار المريخ للنشر – السعودية ط1 1988.

الإعتقاد أو ذاك الطقس لكن الأمر لم يكن كذلك عند جمعنا للأمثال الشعبية ، مع العلم أن الملاحظة التي قمنا بها كانت إنتقائية و هذا يعني إغفال كل ما ليس له صلة بموضوع البحث.

و بما أن الملاحظة بالمشاركة لا تكفي للإجابة على التساؤلات التي تثيرها الدراسة فقد اعتمدت إلى جانب ذلك على المقابلة لأن الحوار ضروري في هذه الحالة و ذلك بالحرص على أن تكون المقابلة غير موجهة ، حتى يستطيع المحاور أن يفرغ كل ما عنده من معلومات و قد واجهتني في هذه المقابلات عدّة صعوبات يرجع بعضها إلى جهل الكثير ممن تحاورت معهم ، معرفة معاني أو أصول الممارسة التي يقومون بها بحجة (لقد وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) و البعض الآخر كان يخفي الإجابة عن كثير من الأسئلة بحجة أنها من أسرار الطريقة.

و في المرحلة الثالثة من الدراسة الميدانية قمت بعملية تحليل و تفسير الظواهر الإجتماعية و الثقافية المتعلقة بالنار و ذلك من خلال ربطها بمختلف الوظائف الأخرى ، النفسية و الدينية و الثقافية.... و بالتالي كان لا بد في هذا المجال من الإستعانة بآراء علماء النفس و علماء الدين و الانتروبولوجية قصد الوصول إلى التفسير الموضوعي المقنع ، لأن"المشاهدة الأثنوغرافية لا تحملنا على الإختيار ضرورة بين فرضيتين : إما فكر تشكيلي ، مقولب بسلبية بفعل المؤثرات الخارجية ، وإما نواميس نفسية هي كونية لأنها فطرية ، و لذا تراها تنتج في كل مكان نفس المفعولات[1]"

[1]– محمد بن حمودة – الانتروبولوجيا البنوية من خلال أبحاث لفي ستروس – دار محمد علي الحامي للنشر صفاقس- تونس ط1 1987 ص22 .ص23 .

1 - النّار في الأمثال الشعبية :

لم يعد يخفى على دارسي المعتقدات الشّعبية ، أنّ المثل / الأمثال تشكّل أقوى النّماذج الإبداعية الجماعية على الإطلاق ، إذ تحمل في ذاتها رؤية خفية لطبيعة التّصوّر العام للحياة و الكون و الإنسان لدى مجتمعات معيّنة في حقبة زمنيّة معينة.

تبـــرز أهمية الأمثـــال ، في استكشاف مناطق الظّل في المنجـز الشعبي و المتطلّع عليه ، ذاك أنّها في الغالب تساق لتقرير إعوجاج في السلوك أو تحفيز على فعل تستقيم الحياة من خلاله و تشتدّ عُرَى المجتمع . و كثيرا ما يحددّ دارسو الأمثال الشعبية مضربا و موردا لتلك الأمثال . فتصبح من خلال تشابه المواقف متطابقة مع ما كانت الأصل فيه. و الحقيقة أنّ الجانب الذي يشدّ الدارسين لا يرتبط بسياق الأمثال و موردها بقدر ما يوجه إلى المضرب. إذ استعارة المواقف ليست ممكنة تماما بيد أنّ المضرب واحد.

أمّا أهمية المثل من جهة أخرى ، فيظهر في قدرته على المحافظة على الصّياغة اللّغوية مهما كانت قيمتها الأسلوبية ، و لعلّ ذلك ما حذا باللّغويين الأوائل إلى اعتباره مادة لتوثيق قواعدهم و تأصيلها. و ذاك ما يوفر من منطلق آخر إمكانية الوقوف على طبيعة العلاقات الإجتماعية و الإنشغالات الكبرى التي كانت تشدّ الإنسان فتدفعه إلى إختلاق صيغ سهلة المأخذ خفيفة الوزن جرى العرف على تسميتها بالمثل.

النّار في الأمثال الشعبية التّلمسانية :

لا تحتفظ الذاكرة الشعبية التلمسانية بعدد هائل من الأمثال حول النار ، إذ لا تتعدّى في أحسن الأحوال عشرين مثلا, تشترك فيه مع ماهو شائع في الجزائر بكاملها, بل إنّ بعضها في الحقيقة إعادة صياغة لأمثال وردت عند العرب القدماء بصيغ فصيحة (حرف من القرآن ولا قطرة من العسل ولا شعلة من النّار.) و هو مثل كثيرا ماتواردته الكتب التي زعمت لنفسها حقّ التّداوي بالأعشاب و ما شابهها.

و قد يدل ذلك على أنّ الموقف من النار واحد لدى العرب مع بعض الخصوصيات التي لا تمنح التّمييز ، و من ثمّ يصبح بالإمكان تفسير قلّة ورود النار في الذاكرة الشعبية العربية بالموقف الذي صبغه الإسلام عليها ، فهي مآل الكافر الجاحد لنعم الله ، يتهيأ حطبها لإنضاج جلود من ولج إليها. و هي في مقام آخر أصل الشيطان فحري بالمسلم أن يتقي شرّها فيعتمد إلى تجنّبها.

كما أنّ للنّار صورة سيئة في الذاكرة العربية على اعتبار أنّ المجوس من عبدتها، و قد لوحوا بها عندما اشتدّ الصراع بينهم حول الأفضل و الأنقى ، فلم يجد بعض الفرس حرجا من إعلان الولاء لها إذ هي أحسن من التّراب. فلا غرابة أن ترتبط النّار في التصوّر الشعبي بالقدرة على الإيذاء و رمزا لكل ما هو حـــامل للقــوّة ، و تبتعد عن رموز التّطهير كما هو شائع في بعض الثقافات

القديمة ، على غرار ما كان يفعله الرومان حين " يشعلون أشواكا و يقفزون في اللهيب المقدّس للتطهر " إذ هي عندهم رمز للعناية الإلهية للأسرة . تقدّم لها الصّلوات ، و يحتفل بإشعالها تماما كما تفعل الشعوب الأخرى مع الآلهة التي أرقصتها.

تفقد النار في بعض الأمثال الشعبية التلمسانية قوتها و جبروتها ، فتصبح هيّنة غير مؤذية مقارنة بالقضايا الكبرى التي يحلم صاحب المثل بتحقيقها.

تبدو " النار" فاقدة لحرارتها عند من فقد وطنه أو ابتعد عنه ، إذ هو قادر على تحمّل إيذاء النار على النّأي على الأوطان "حرايق بداني و لا فراق وطاني" فالروح عندما تتجاوز جسدها و تنفصل عنه لا تكترث بآلام النار و لا تأبه به ، إذ لقاء الوطن كفيل بمنح قوة التّحمل و قدرة التّرقع عن جسد أنينه لا يضاهي عناق الوطن.

وقد تتحول النار إلى شيء مرغوب عندما تقابل بما هو أقوى و أكثر شرّا ، فنوجّه الأنظار إلى طلبها بعد أن كان الدّنو منها يثير الفزع في النّفوس.

ويصير الاستعمار في المثل " النّار و لا الإستعمار " أشدّ قسوة و تنكيلا من النّار ، و تلك صورة عفوية غير مباشرة ، لطبيعة علاقات الأهالي (عامّة الشعب) مع معمر تجاوزت حدود طغيانه النار ذاتها ، و لمحلل "المثل" أن يلفظ درجة تلك القسوة و ذاك الجبروت.

الواقع أنّ صبغة المثل " النّار و لا الإستعمار" محولة بطريقة دقيقة عن مثل آخر من الوزن نفسه " النّار و لا عمّار" و تطابق "عمّار" مع "استعمار" من الناحية الصوتية ظاهر لا يحتاج إلى دليل ، أمّا من ناحية دلالاته فإنّه يحمّل تصورا عجيبا. ذاك أنّ "عمـــار" في المخيـــال الشعبي التلمساني "كبير الجان" و عندما ي قرن عمّار بـ"استعمار" فذاك يؤدي إلى استكشاف "العبقرية الشعبية" في شحن "الإستعمار" بدلالات تجسيد كل أنواع الشّرور، و القدرة الخارقة على الإيقاع بالنّاس بشكل لا يمكن العقل البشري أن يتصور درجته.

تتّخذ النار في مقام آخر لنعت صفات الشّر في فئة من الناس ، تلتقي أفعالها بما تلحقه النار من أذى عندما تتجاوز حدود الحاجيات البيولوجية. ف"شكون يسخّن على نارك" ، فلهيب أفعاله "المخاطب" لا تفترق عن حرارة نار لا ترضى باقتراب الإنسان لموقدها ، فهي مؤذية تخلف أضرارا شبه دائمة ، تماما كما يفعل الإنسان عندما يحترف الإيقاع بالناس و إلحاق الضرر بهم. و من ثمّ يقع التّقارب (التّشاكل) بين فعلين كانا في البداية قد برزت اختلافهما. لكن الشّر كفيل بالجمع بين المتناقصات فيصير الإنسان نارا إذا لم يَفُقهَا تأثيرا، إذ جرح النار زائل يكتوي الداني منها للحظات ثمّ يعود إلى عهده الأول، أمّا جرح الإنسان فدائم راسخ ، الزمن غير قادر دائما على إغفال حدّته.

أمّا عندما يعـــود الإنسان / النار إلى رشده ، و يتوقف عن إيذاء من حوله إمّا لضعف أصابه و إمّا لموت أدركه ، فإن المثل الشعبي يشتقّ له صبغة من النار ذاتها التي كان يلوح بقوته من خلالها ، فينعته بـ "انطفأت ناره" إذ لم يعد قادرا على مدّ شروره إلى الناس ، فناره خامدة و قواه هامدة و مصدر تهديداته ضمر و تلاشى.

و قد لا تفيد دائما حركة من يحزنه أن "انطفات ناره" عندما يسهم في إذكائها من جديد "حطب جهنّم" لتستعيد شعلتها، فتلقي بجمراتها المحرقة ، لئلا لا تبقى للمودّة صلة و لا إلى الخير معنى . فالنفوس المريضة لا تقوى على العيش في جوّ من الصّفاء و حسن المعاشرة . و ذاك ما يفسّر الشّعار " اللّه يقديها بناتهم".

صيغ النار في الأمثال الشعبية:

◈ لا ترد النار في المثل الشعبي التلمساني بدلالاتها الحرفية و لا بتركيبها اللغوي المعروف (ضم حرف النون و الألف و الرّاء) ، و إنّما بما يشير إليها و يحلّ محلّها.

فقد تأتي "جمرة" في مقام وصف أوج إشتعالها، و "الرّماد" عندما تكون خامدة "خرجه كالجن في الرّماد" و هي هنا إن لم تكن مؤذية في ذاتها إلا أنّها تشكّل مصدر من ينوب عنها في إلحاق الضرر (الجن) ، و بذلك تتوطد العلاقة بين النار و الجن ، فيحيل المثل على التصوّر الإسلامي " وَ خَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ".

◈ ترتبط النار في معظم الأمثال بأفعال هي من صميم قوتها و شدّة وقعها،"قديها، يتخطّى النار"، "طابت و لا احترقت" " أخاف و لا تخاف" (ينظر إلى ملحق الأمثال).

و هي أفعال عـــادة ما تسبق النـــار ، مما يجعل الإعتقـاد راسخا بأنّ النار في

ذاتها غير ضارة أو مؤدية و إنما الدنوّ منها أو السعي إلى جعلها كذلك هو المؤذي في الحقيقة.

و كما أن تلك الأفعال المقترنة بالنار تذكي لهيبا إذ هي حاملة لدلالات الفزع و القوة (تخاف ، اقربها ، اسخن ، يتحطى ، ...).

1) موضوعة النار في الأمثال التلمسانية :

تتنـوع موضوعة النـــار في الأمثـــال الشعبيـــة التلمسانية – على قلتها – على مضامين مختلفة ، يكون وجهها الأول مقرونا بالحاجة إلى لهيبها لإبعاد مرض استعصى علاجه (الكيّ) ، و الثاني مرتبط بالحاجة إلى تأجيجها حين يرجى منها إذكاء الفتن أو إعلان تحد لأمر لا تصلح معه إلاّ كيميائيتها.

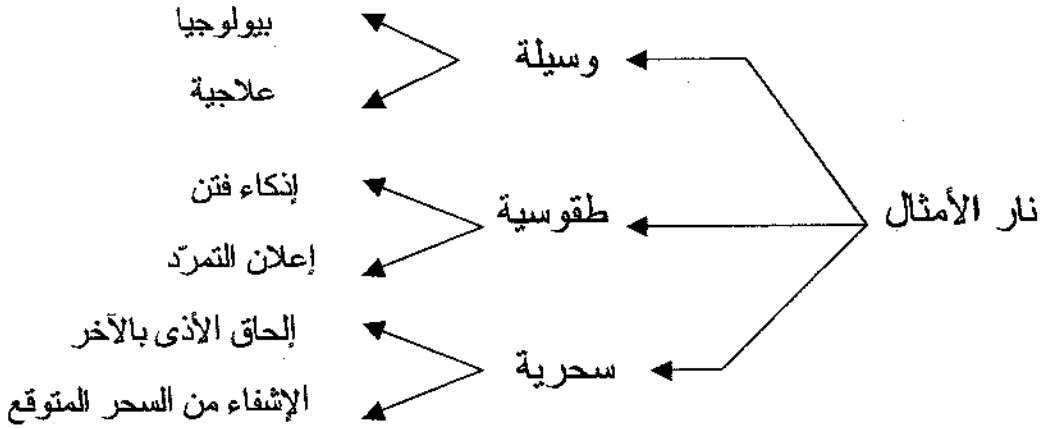

2) صيغ النار في الأمثال التلمسانية :

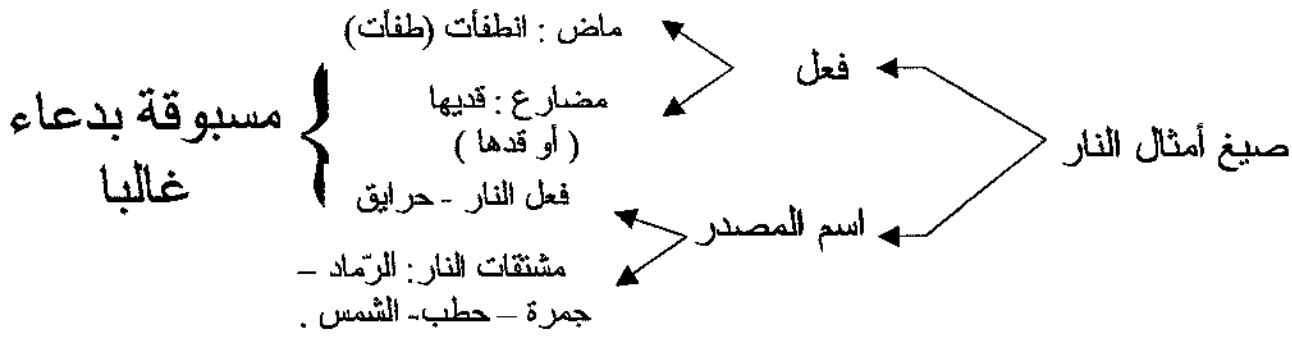

2- النار في المعتقدات الشعبية:

اعتقد الأمر إذا صدقه، و عقد عليه قلبه و ضميره- تدين به- العقيدة هي ما عقد عليه القلب و الضمير, أو ما تدين به الإنسان و اعتقده ، نفهم من المعتقدات كل ما اعتقده الإنسان فيما يتعلق بالعالم الخارجي و العالم الفوق طبيعي.و المعتقدات الشعبية هي تلك الطقوس و التصورات و الأفكار التي تؤمن بها الطبقات الشعبية ، و التي تتعلق بكل ما له صلة بالجانب الإعتقادي ، في عالم الكائنات الخفية ، كالجن و الملائكة و الأرواح و ما يدور حولها من معتقدات و أفكار و طقوس تقديس الأولياء...

و في هذا المقام لابد من الإلحاح على تعدد أشكال وجود النار في المعتقدات الشعبية من خلال بعض الطقوس التي يمكن إرجاعها إلى كوكبة رمزية واحدة هي الرموز النورانية*، هذه الرموز قديمة قدم الفكر الأسطوري عند الإنسان البدائي ، إذ نجدها عند قدماء المصريين الذين كانوا يعتقدون" بأن أرواح الموتى تتحول إلى أجسام نورانية "[1] .

و النار تدخل ضمن الرموز النورانية بما فيها الشمس التي تتعارض مع رموز الظلام, و قد يتساءل البعض ما علاقة النار بالرموز النورانية؟ يرى غاستون باشلار بأن "النار ترتبط بالنور بطريقة جدلية. فلا نار بدون نور, و لا نور بدون نار " [3] مستشهدا بعبارة كتبها الشاعر الألماني نوفاليس " النور هو عبقرية العملية النارية" [4] .

---

*- هذا التصنيف وضعه جلبير دوران في كتابه الأنتروبولوجيا رموزها و أساطيرها و أنماطها .

[1]- مجلة الفكر العربي المعاصر ص44 .

[3]- غاستون باشلار – النار في التحليل النفسي ص152 .

[4]- نفسه ص152 .

إن الدارس للمخيال الشعبي الجزائري يدرك مدى توغل الفكر الأسطوري في البنية الذهنية , الشعبية الجزائرية . حيث يشكل هذا الفكر مصدرا هاما لكثير من معتقداتنا و تصوراتنا و إبداعاتنا الفنية.

" و من أقدم الطقوس الأسطورية التي عرفتها الجزائر منذ أقدم العصور عبادة الشمس و القمر و هما من معبودات المصريين القدماء "[1] .

و لهذا سنحاول أن نكشف عن بعض بقايا هذه المعتقدات القديمة كما تتصوره المخيلة الشعبية.

أ - <u>الإعتقاد في الشمس</u>:

العلاقة بين النار و الشمس واضحة , لاشتراكهما في عدة أمور منها النور و الحرارة, لذلك كان الإنسان البدائي يعتقد بأن " النار هي شمس الليل و تتمة لشمس النهار , و للشمس دور مخلص إذا عرف الإنسان كيف يجعل مواتيا بتضحيته للنار,فعند بعض الشعوب تقدم تضحيات للشمس خوفا من ألا تعاود الشمس ولادتها، فيساعدونها من أجل إعادة الولادة بإشعال النار"[2] بل هناك من ذهب إلى الإعتقـــاد في وجود علاقة قرابة بين الشمس و النار فسميت "الشمس بالأب و النار الأرضية بالإبن"[3] و الشمس في المخيال الشعبي الجزائري عامة و التلمساني خاصة لا تخرج بعيدا عن هذا التصور فالشمس هي ذلك الإله الذي يمنح الجمال و القوة, و لذا وجب التوسل إليها و التقرب منها, و من بقايا هذا الإعتقاد, أنه إذا سقطت سن لطفل صغير أخذها و توجه بها نحو الشمس قائلا:" يا شمس أعطيك سن الحمار و أعطيني سن الغزال".

---

[1]– ينظر مبارك الميلي – تاريخ الجزائر في القديم و الحديث – الجزائر – 1976 –ص74 .

[2]– قليب سيرنج الرموز في الفن و الأديان و الحياة ص338 .

[3] – Pierre Daco - le prodigieuses victoire ,de la psychologie moderne-

يظهر من خلالا هذا القول أنه بين " الشمس " و" الغزال " صلة وثيقة ، " فهما شيء واحد أو صورتان لمعنى معبود هو معنى الأمومة " [1]

ب - <u>الإعتقاد في القمر</u>:

إن صورة القمر تظهر في الإعتقادات المتعلقة بالممارسات الزراعية ، إذ يرى بعض الفلاحين بأن القمر يساهم في عملية نمو النبات ،و نضج الثمار. و هذا شيء قريب من التفسير العلمي باعتبار أن القمر مصدر للضوء، فهو يساعد النبات على عملية التركيب الضوئي أثناء الليل و بالتالي فإنه يساعد النبات على النمو بسرعة.

لقد عبر القرآن الكريم عن ذلك التطور للمعتقدات الدينية المتعلقة بعبادة الشمس و القمر في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام, في قوله تعالى " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا, قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ .فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنَ رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَر ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ "[2]

فههنا نجد صورة رمزية للإنسان و هو يعبد الكواكب و يتقلب في أطوار حياته ، يعبد القمر تارة لأنه مضيء و لأنه مرشده في الليل (ربما كان هذا في مرحلة الرعي و انتقاله من مكان إلى مكان)لكن ليس هو الإله الحقيقي: لأن الإله الحق لا يغيب. يقول الأستاذ العقاد : " إن ديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد

---

[1]– علي البطل – الصورة في الشعر العربي – ديوان المطبوعات الجامعية – 1981 ص70.

[2]– سورة الأنعام من الآية 76 إلى 79 .

الصحيح ، لأنها أكبر ما تقع عليه العين و ينطبق هذا الترتيب تمام الإنطباق على فحوى قصة سيدنا إبراهيم"[1]

ج - الإعتقاد في الجن و الملائكة:

ظهر الجن و الملائكة في المخيال الشعبي العربي منذ أقدم العصور ، و جاء الإسلام ليثبت هذه المعرفة ، و ليؤكد وجود دنيا الجان و دنيا الملائكة فمنذ البدىء و الإنسان العربي مقتنع بوجود قوى خارقة خيرة هي الملائكة ، و قوى خارقة شريرة هي الشياطين ، و أن هذه القوى موجودة في عالمه و أنها تلعب دورا هاما و مؤثرا في حياته.

يعتقد الناس في الجن، باعتبارها أرواحا بلا أجسام ملموسة. و الجن في اللغة هو الخفاء . أما في المعتقد الديني فإن الجان مخلوق كباقي أنواع المخلوقات الأخرى" و الجَان خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْل مِنْ نَار السَّمُوم" [2] والسموم جمع سمائم و هي الريح الحار، و قوله تعالى" خَلَقَ الْجَانَ مِنْ مَارِج مِنْ نَار"[3]إن الإعتقاد في الجن موجود في العقائد القديمة و كان العرب يعتقدون أنها تسكن في الأودية و الجبال و الشعاب ، و يتعرضون للبشر بالأذى ، و لهم صلات ببني الإنسان من شعراء و سحرة و كهنة، و من ثم كان لابد من مواجهتها و صد شرورها.

وهذا ما جعل المخيال الشعبي التلمساني يعتقد في أن للجان سلطة على البشر ، مرجعا بذلك الظواهر الغريبة التي تحصل إلى أعمال شيطانية .... فلا تزال تطالعنا الأخبار الواردة عبر الصحف والمجالات . أو غيرها مما تتناقله أحاديث الناس اليومية ، عن بعض ما يتعرض له الإنسان من أذي من طرف الجن

---

[1]– عباس محمود العقاد "والله" كتاب الهلال عدد 42 1954 ص27- 28 .
[2]– صورة الحجر الآية 27 .
[3]– سورة الرحمن الآية 15 .

(الشياطين) . والأمر الغريب في ذلك أنّ الإيذاء يحصل عن طريق الحرق بإشعال النيران ، وسنقتصر في هذا المجال على خبر شفهي رواه لي أحد الأئمة * والآخر خبر يدوّن تناولته إحدى الصحف اليومية (فسيتم عرض هذا الخبر كما هو ملحق البحث) .

ففيما يتعلق بالخبر الأوّل فقد ذكر لي الإمام " بأنّ حادث غريب حدث في بيت عمّه بمدينة وهران ، هذه الظاهرة الغريبة تتمثل في استعمال نيران داخل البيت من دون أي سبب يذكر ، متسلقة الجدران ويضيف قائلا " بأنّ هذه الظاهرة تكررت عدّة مرات ولم يستطع صاحب المنزل إيجاد حلّ لها إلا بعد أن عرض الأمر على أحد الأئمة ، الذي أخبره بأن هذا الفعل هو من عمل الشياطين فقام برقية المنزل ومن ثمة اختفت هذه الظاهرة .

أما الرواية الثانية فقد نقلتها صحيفة الرأي اليومية العدد 971 الصادرة بتاريخ 07 جويلية 2001 ص 7 .

والخبر متعلق بظاهرة غريبة حصلت في مدينة مستغانم ، كان مسرحها فلاح ، إذ اشتعلت النيران في بيته بل أن طالت حتى المحاصيل الزراعية وهو ما يطلق عليه في المنطقة باسم " **رجـيمة** " وتـذكر الصحيفة أنّ أهـل العلم تعجبـوا للظاهرة في الوقت الذي يتطلب فيه اشتعال النّار بشرارة أو غاز أو مادة قابلة للإشتعال مثل هذه الظواهر الغريبة تدل على أنّ المخيلة الشعبية لا تزال تبدع تلك القدسية الرهيبة التي تملكها النار عند الإنسان البدائي وسواء أكانت من فعل الطبيعة أو الآلهة أو الشياطين ، فالاحتراس منها ، ومحاربتها لابد أن يبقى متواصلا ، وأقوى سلاح في إيقاف إيذاءها هو النار نفسها ، ومن هنا جاء المثل الشعبي " حارب النار بالنار " .

و قد واجه الإنسان هذه القوة الخارقةو بواسطة" التعوذ " و من سياق صراع الإنسان مع هذه القوى الخفية نشأت الصيغة الشهيرة "أعوذ ...من شر "كما نجد ذلك في المعوذتين المذكورتين في القرآن الكريم و التعويذة من الجان, و دفع شرورهم يكون من نفس جنس

الخلق,أي بالتعوذ من النار، كما يظهر ذلك في التعويذات التالية:

"اللهم إني أعوذ من النار و ما قرب إليها من قول أو عمل "رواه ابن ماجة عن عائشة " اللهم إني أعوذ بك من فتنة القبر و عذاب القبر و من فتنة النار و عذاب النار "رواه البخاري و مسلم و النسائي و ابن ماجة و الترميذي عن عائشة " النار عدو فاحذروها" رواه أحمد و مسلم عن ابن عمر *.

أما الملائكة فيعتقد أنها من أجسام نورانية , و هذا الإعتقاد يأتي كون أن جميع الأديان تعتقد بأن لله طبيعة نورانية كما سبق و أن ذكرنا " فالنور هو الكلمة الإلهية، و هو الحقيقة و سر المحبة إذ نجده في أصل الكون و الإنسان " [1] لذلك فإن النور هو الذي يغمرنا في وسط ظلام دامس ، و ما يصحب هذا الإحساس من انفعال الفرح ، و الثقة بالنفس و النصر و الخلاص " فالإنسان يبحث بطبعه عن النور, فهو كالنبتة التي يقول عنها عالم الطبيعة بأنها تتجه نحو النور " [2] نستنتج بأن الإستحضار الرمزي لصورة الجن و الملائكة يكون من خلال التقابل الموجود بينها النار /النورو باعتبارهما ينتميان إلى كوكبة رمزية واحدة كما سبق و أن قلنا فقد ذكر القزويني هذه الصلة الموجودة بين الجن و الملائكة و الشياطين يقول " زعموا أن الجن حيوان ناري...من شأنه أن يتشكل بأشكال مختلفة ، و اختلف الناس في وجود الجن فمنهم من ذهب إلى أن الجن و الشياطين مردة الإنس، و منهم من ذهب إلى أن الله تعالى خلق الملائكة من نور

---

*- أنظر- يوسف بن إسماعيل الشهستاني – وسائل الوصول إلى شمائل الرسول من 210 إلى 213 .

[1]– عدنان حمن – مجلة الفكر العربي المعاصر – العدد 42 –سنة 1986 ص43 .

[2]– أحمد ديب شعود- النور والإشراق في الأسطورة والرمز والمجتمع مجلة الفكر العربي المعاصر .ص 44.

النار، و خلق الجن من لهبها و الشياطين من دخانها. و أن هذه الأنواع لا يراها الناظر" [1] .

ب - الإعتقاد في الأنوار:

يمر الفكر البشري بفترات طويلة، من الخمول و الغيبوبة و اللاوعي بسبب شواغل المادة و الحياة الإجتماعية و الإقتصادية، التي تمتص طاقة اهتماماته و إدراكه، و تطمس بذلك فرص إنفتاحه على عوالم أخرى و أمور مجردة، نفسية و غيبية، لكنه لابد أن يستيقظ ، في لحظات غير اعتيادية ، بفعل عوامل معينة (إحتفال – عيد – طقس ...) فيتحرك و يتحرر و يفكر و يرى بوضوح و جلاء حقيقة الأمور، فيسمو بفكره و خياله، و ينأى عن عالمه اليومي الرتيب ، من ذلك اعتقاده في وجود الأنوار الإلهية ، التي تحمله إلى مرتبة روحية رفيعة المستوى و من هذه الأنوار:

- **نور ليلة القدر:** يعتقد الناس أنه في هذه الليلة تنشق السماء و تظهر من خلالها أنوار إلهية ، بحيث يكون من صادف رؤيتها مستجاب الدعاء يبدو أن هذا التصوّر لرؤية ليلة القدر مستمد من قداسة و تعظيم هذه الليلة التي أُنزلَ فيها القرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى " إنا أنزلناه في ليلة القدر و ما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خيرمن ألف شهر تنزل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر " [2] إن الربط بين ليلة القدر و رؤية الأنوار في المخيال الشعبي ، ما هو إلا صورة متكررة لرمز التصاعد و الألوهة. فالنور" هو رمز شبه عالمي في تاريخ

[1] – القزويني – عجائب المخلوقات و غرائب موجودات – منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط 1981 ص387 .
[2] – سورة القدر من الآية 1 إلى الآية 5 .

الأديان" [1]. فغالبا ما أثيرت مسألة النور (النور الروحاني) في المسيحية فقد جاء في العهد الجديد " أن المسيح هو النور " [2] في حين نجد أن النور كما ورد في القرآن الكريم هو من أسماء الله و صفاته لقوله تعالى " اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ و الأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحُ المِصْبَاح فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ و لاَ غَرْبِيَةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ و لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ و يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ و اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم "[3] و قيل في تفسير الله نور السموات و الأرض " أنه هاد أهل السموات و أهل الأرض . و قيل: مثل نوره كمشكاة فيها مصباح" أي مثل نور هداه في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح و قد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير للنور و منها " قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُور و كِتَاب مُبِين " و قد فسر المفسرون النور هنا بأنه محمد صلى الله عليه و سلم .

ب- <u>نور الشعلة</u>: أثارت الشعلة مخيلة الكثير من الباحثين و الفنانين تاركة لهم حلوميات الضوء /النار/الإحتراق ، حتّى أن باشلار فسر بأن كل ماهو صاعد على أساس أنه شعلة يقول" ليس في مستطاع الشجرة أن تغدو سوى شعلة زاهرة ، فيما يغدو الإنسان شعلة ناطقة ، و الحيوان شعلة ضالة"[4] لقد مثلت الشعلة منذ القديم صورة المجد و القوة و المعرفة حتى أصبحت الرمز المشترك في كثير من أساطير العالم خاصة الإغريقية و الشرقية ، فالصوفية تؤكد أن الفراشة التي تقذف بنفسها في لهب المشعل هي فراشة صوفية إذ " تماثل هذه الماهية الأسطورة اليونانية التي تجعل الفراشة رمزا للنفس , يقدم لنا النفس psyché في صورة صبية أو فراشة يلمحها الحب إيروس éros

---

[1]– فليب سيرنج – الرموز في الفن – الأديان- الحياة ص343 .
[2]– نفسه ص345 .
[3]– سورة النور من الآية 35
[4]– غاستون باشلار – شعلة قنديل – ص66 .

فيأسرها و يحرقها بالمشعلة " قد تمثل الشعلة أيضا رمز المعرفة. فالنار التي كان يرمز لها بالشعلة المسروقة في أسطورة برومثيوس هي مجرد بديل رمزي لنور الفكر, فهو لم يسرق النار و إنما سرق المعرفة التي بها فتح الإنسان آفاقا جديدة عبر مراحل تطوره التاريخي" فالنار قابلة لأن تمثل الفكر ...لأنها تتيح للرمزية أن تصور الروحانية(بالنور) من جهة، و التصعيد (بالحرارة) من جهة أخرى"[1].

و لهذا أصبح للشعلة في يومنا هذا مواطن احتفالية عديدة نشاهدها في المشعل الأولمبي و تمثال الحرية أو مقام الشهيد و هي بذلك دليل و رمز على " استمرار حمل المشعل الحضاري من يد إلى يد أمرا حتميا ... يكون فيها الإنسان مجرد أداة للبقاء و القوة في هذه الحياة القصيرة البقاء و القصيرة النظرة "[2]

جـ- <u>نور الشمعة</u>: لعل أن إشعال الشموع هو من العادات التي تشترك فيها جميع الشعوب في المناسبات الخاصة بالأفراح أو الأقراح و الشمعة في أبسط صورها ما هي إلا مشعل صغير يتكون من فتيل نباتي يكسوه شمع يستخدم في الحصول على النور، إلا أن رموزها تكاد تتشعب تشعب النفس البشرية، فغالبا ما كانت الشمعة تعامل معاملة البشر تسمع و تعي و تفهم إذ تعبر كل صورة عن الأثر الذي تتركه الشمعة في نفس الإنسان، و انفعاله بها يعبر عن إحساسه و رؤيته الخاصة تجاه الحياة و بالتالي يمكن للشمعة أن تكون جليسا و أنيسا، يستأنس بها الإنسان، و يبثها شكواه و رغبته في البكاء، بسبب هجران الحبيب و يطلب منها مشاطرته أحزانه و حرقته. أنّ إشعال الشمعة هو سبب هلاكها و حتفها و هي في نفس الوقت مصدر سعادة الآخرين و لهوهم و أنسهم ،

---

[1]– غاستون باشلار - النار في التحليل النفسي ص 152 .
[2]– فاروق خورشيد – عالم الادب الشعبي العجيب دار الشروق (ط1) ص16 .

فهي تعلمنا بأن الإنسان الحقيقي هو الذي يذوب و يفنى في سبيل سعادة الآخرين و من هنا صارت حكمة الفيلسوف الصيني كونفوشيوس " لئن تضيء شمعة خير من أن تلعن الظلام " حكمة عالمية تحملنا إلى مزيد من المعرفة و طلب العلم و التضحية من أجل الآخرين. أما عند الصوفية فإن الشمعة هي "رمز السالكين الذين يسعون إلى شق الطريق الصوفي للوصول إلى الحق تعالى و الفناء فيه, و البقاء في معراج روحي يحاكي معراج الرسول (ص)" .[1] هذا الرمز الصوفي للشمعة تناوله الشاعر الصوفي الكبير فريد الدين العطار (ق 7 الهجري) في حكاية قصيرة من حكايات عمله الكبير منطق الطير و التي انتهت باستقرار إحدى الفراشات في نور الشمعة و فنيت فيها و احترقت كلية دون أثر باق منها بحيث أخذت من النار لونها ، و هذه الصورة عند الصوفية هي رمز الفناء الكامل للسالك في الحقيقة. إن هذا الرمز لا يخرج بعيدا عن رموز الشمعة التي نجدها في الطقوس و المعتقدات الشعبية و التي أخذت مظاهر عدة منها:

1- **شمعة الميلاد** : إن أول شيء يستحضر في الاحتفـــالات الخاصة بأعياد الميلاد ،هو إيقاد الشموع هذا الطقس له أكثر من دلالة رمزية و إن كانت كلها تشترك في معنى واحد هو تجديد الزمن البدئي, الزمن الطهور الذي كان موجودا في لحظة الخلق" فالتطهير يكون بإيقاد نار محو الخطايا و الذنوب التي يرتكبها الفرد و الجماعة.

[1]- أحمد ديب شعبو – النور والإشراق في الأسطورة ، الرمز والمجتمع مجلة الفكر العربي المعاصر ص 46 .

فالأمر هنا لا يتعلق بتوقف فعلي لحقبة زمنية معينة، و بداية حقبة جديدة كما يتخيل ذلك إنسان حديث ...و لكن إيقاد الشموع في رأس السنة الجديدة ما هو إلا خلق العالم رمزيا "[1] .

2- **شموع الأموات** : إن شعل الشموع مع الأموات ظاهرة موجودة قبل الإسلام إذ " كان العرب يوقدون النار إلى جانب الجثة ، و كانوا يجملون النار مع الميت، و كل هذا يدل على أهمية طقوس النار في الموت من حيث أنها تهدف إلى بعث الميت و طرد شبح الموت عنه"[2] و قد امتدت طقوس إشعال شموع الموتى إلى أماكن خاصة منها المقابر و مكان أضرحة الأولياء . هذه الشموع غالبا ما تشعل عند غروب الشمس و يسمى هذا الوقت " بالصلوات " لاعتقادهم بأنه وقت خروج الأرواح و احتلالهم للأماكن المقدسة (المقابر ، أضرحة الأولياء ، منابع المياه ...).

إن شموع الأموات هو الشيء الأساسي للإثارة عندما يوضع في مكان صخري مقدس أو بداخل جذع شجرة بحيث" لاتحتاج إلى أن ترتفع شعلتها بداخل المقبرة .لأن المقبرة في حد ذاتها هي رمز الإنسان.فالتراب أو الطين هو رمز الجسد, الزيت أو الشمعة رمز الروح و الشعلة تأتي للدلالة على وجودهما, و الإنسان في حد ذاته هو مصباح مشتعل يدل على وجود الإله"[3] و بالتالي نلاحظ بأن هذه الرمزية تقرب الإنسان من الثقافة السماوية و تبعده عن الحيوانية ، و بهذا المعنى فالنار هي إله حي مفكر.

---

[1]– مارسيا إلياد- المقدس و الدنيوي- ص77 .
[2]– جواد علي – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ط1 ج5 ص156 .
[3]– فليب سيرنج –الرموز في الفن – الأديان و الحياة ص43 .

حسب فليب سيرنج , أما مارسيا إلياد في ثنايا فهمه و شرحه لمثل هذه الطقوس فقد طرح لنا فكرة العبور ف" كل وجودكوني مقدر له " العبور" الإنسان يعبر مما قبل الحياة إلى الحياة ثم إلى الموت كما عبرت الشمس من الظلمات إلى النور...هذا العبور يظهر في كثير من طرائق تكرار خلق العالم(كوسموفونيا)، طقسيا أي العبور النموذجي من القوة إلى الفعل. و من المناسب أن نبين أن جميع هذه الطقوس و الرموز المتعلقة بالعبور تعبر عن مفهوم نوعي للوجود البشري , فالإنسان قبل أن يولد يظل غير مكتمل الخلق. لذلك يجب أن يخلق مرة ثانية, لكن هذه المرة روحيا. و إنما يصبح الإنسان تاما بالعبور من حالة النقص,الحالة الجنينية، إلى الحالة التامة من النضج. إن الوجود البشري يصل إلى امتلائه عبر سلسلة من طقوس العبور و باختصار من خلال عمليات متتعاقبة من المسارات(استلام الأسرار)"[1] هذا الطرح الذي قدمه لنا مارسيا إلياد يفسر لنا كثير من الطقوس و العادات خاصة تلك التي تتعلق بإيقاد الشموع فهي نوع من تأكيد العبور من الفناء إلى الوجود في شموع أعياد الميلاد.و العبور من الموت إلى الإنبعاث في شموع الأموات.وهكذا تتوحد الرموز من خلال الشمعة وتتجمع في موجود واحد هو الإله الذي يحيي و يميت ثم يبعث الموتى وهذه الطقوس"ترتبط بالمعتقدات الشعبية الحالية في منطقة البحر المتوسط"[2]

---

[1]– مارسيا إلياد- المقدس و الدنيوي ص169 .

[2]–فليب سيرنج –الرموز في الفن و الدين و الحياة ص43

3 - النار في الطقوس الشعبية:

- مفهوم الطقس :

إن كلمة طقس (rite) كما يعرفها الدكتور نور الدين طوالبي في كتابه" الدين و الطقوس و التغيرات " بأنها كلمة مشتقة من اللاتينية ritus " و هي عبارة تعني عادات و تقاليد مجتمع معين كما تعني كل أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي " [1]

و الطقس من حيث طبيعته يميل أساسا من خلال تكرار و استدامة القواعد التي تثبته إلى" تكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده " .[2]

و الطقوس بهذا المفهـــوم شديدة الارتباط بالمعتقدات الشعبية ، الدينية منها و الأسطورية باعتبارها إحياءً ، و تحيينا لتجربة مقدسة فالطقوس كما يقول طوالبي " هي أساطير تتحرك ....تأخذ معناها عند الذين يستعملونها على أنها فعل ديني "[3].

في حين يرى ليفي ستروس " بأن الطقوس تعمل بطريقة مستقلة نسبيا عن الوقائع الدينية أو الأسطورية الثابتة " و هذا يعني أنه لا ينفي وجود العلاقة بين الأسطورة و الطقس . و وظيفة الطقوس تكمن في كونها تحاول إنشاء علاقة حميمة و معقولة بين عالم الحياة العادية، و عالم الأجداد، و الألوهيات رغم أن البعض*يذهب إلى أن الطقس موجود خارج إطار الموضوع أي خارج كل حدث ديني مسبق.

---

[1]– د. نور الدين طوالبي . الدين و الطقوس و التغيرات . ديوان المطبوعات الجامعية – ترجمة وجيه البعيني ط1 1988 ص34

[2]– نفسه ص34 .

[3]– نفسه ص36.

*- نقصد بهم تلك الجماعة من علماء الأنتروبولوجيا و علماء الأديان الذين استشهد بهم طوالبي في كتابه الدين و الطقوس و التغيرات و في معرض حديثه عن وثائق الطقس الدينية من ص36 إلى ص41 و من العلماء الذين استشهد بهم شيلهود j.chelhoud في كتابه" بنى المقدس عند العرب" و ليفي برول و غيرهم.....

و مهما كانت التغيرات التي قدمتها الدراسات المختلفة عن الطقوس فإنها لا تنفي وجودها كعامل توازني للنفس البشرية, فهي بمثابة دفاع دينامي دائم موجه ضد كل تغيير مسيء لتكامل الأنا. و هذا ما يفسر لنا أيضا أسباب استمرارية الطقوس و بقائها إلى جانب المعتقد الديني لوجود علاقة بينهما و التي تتمثل في ذلك التقاطع الموجود بين الطقس والدين، و هو أن كلاهما يسْعَى إلى تحقيق المقدس أو التقرب منه و من هنا يبدو أن ممارسة الطقوس المختلفة يرجع إلى الإعتقاد أنها مقدسة.

إن هدفنا من هذا التوضيح هو الكشف عن حقيقة بعض الطقوس في المعتقدات الشعبية الجزائرية و المتعلقة بموضوع بحثنا " النار في المخيال الشعبي" و التي نجد منها على سبيل المثال نار العنصرة .

أ- <u>نار العنصرة</u> : هي عبارة عن طقس إحتفالي يقام في فصل الصيف من كل سنة و إختلفت كل منطقة في تاريخه و قد حاول"جان سرفييه" jean servier [1]أن يجد تفسيرات للعنصرة بالرجوع إلى الثقافات الشعبية لشعوب البحر الأبيض المتوسط ,فهو يستشهد بابن العوام في كتابه الالفلاحة بشأن العنصرة,فهذا الاسم في اعتقاده يعود إلى الكلمة العبرية"عصيرات"Aceret ، والتي نعني أيضا بها كلمة Pentécôte و هي الاسم التلموذي لعيد العنصرة، الذي يقع في الرابع و العشرين جوان ،و هو يقابل حفل مهرجان، الذي هو اسم فارسي لعيد الشمس في شهر أميهرانا Imihranah ، يعتقد بأن هذا الاحتفال نقل إلى شمال أفريقيا من طرف الطلبة " tholba " أي طلبة القرآن الكريم و حفظته بالمدارس القرآنية و الذي انتقل إلى عامة الناس و خاصة الفلاحين منهم الذين

[1] - Jean Servier les portes de l'année Robert laffout . Paris 1962 .

لازالوا حتى اليوم يحتفلون بهذا الطقس عندهم كعامل تطويب لأرزاقهم الفلاحية . و ما يهمنا هنا هو الاحتفال بعيد العنصرة في الجزائر، الذي يعود إلى أسطورة قديمة جدا ملخصها أن ملكة يهودية كانت تقطن في منطقة القبائل تدعى "عينسلة"* التي وقعت مغرمة بابنها و لتلبية نزوتها، بنت له قصرا في مدينة بعيدة عن مملكتها، و صارت تذهب إليه متنكرة في صورة امرأة أجنبية عنه، فأنجبت منه بنتا، و أرغمتها بعدما كبرت على الزواج منه، و لما كان يوم الزفاف وجد كل من الزوجين نفورا تجاه الآخر، و شاهدا في ذكر أنهما يقذفان الدم .

و لما كان يوم الغد كشف الكاهن لهما عن الحقيقة فمثلت الملكة أمام تاجماعت* و اعترفت بجريمتها، و حكم عليها بالحرق حية أمام الملأ، وسط الحقول المزروعة، فوصل دخان نار الحرق إلى كل الأشجار المثمرة، و نتج عن ذلك ظهور فواكه لا نظير لها, و من ثم أصبحت عملية تسريب الدخان إلى الأشجار طقسا اعتياديا لدا سكان المنطقة تخليدا للملكة، اليهودية المحترقة.

و تروى القصة في مكان آخر بالشكل التالي : منذ زمن بعيد, أيام اليهود الذين عاشوا في أفريقيا قبل الرومان، كانت تعيش ساحرة تتمتع بقوة خارقة ، و لما ماتت أراد سكان المنطقة أن يحتفظوا بجثتها كتعويذة. و لكن لما انبعثت منها رائحة التعفن، قرروا أن يتوجهوا إلى الغابة ، و يبحثوا عن كل أنواع النباتات العطرة من أجل تطهير جسد الساحرة و حفظه ، و بالتالي للمحافظة على القوة السحرية التي ظلت ملتسقة بالجثة.

---

*- كلمة عينسلة هي قرية من حيث الاشتقاق اللغوي من لفظة عنصرة

* تاجماعت كلمة قبائلية تعني كبار و عقلاء القرية الذين يرجع لهم فضل الحل و العقد و هي بمثابة مجلس شورى مصغر يقع على مستوى القرى و المداشر و المدن .

و يتكرر الطقس ذاته في منطقة بني سنوس * بتلمسان بإضافات على الجوانب العامة للأسطورة، فأهل المنطقة يحتفظون بحدث يفسر إلى حد بعيد طقس"العنصرة "، فعندهم مصدرها يعود إلى امرأة يهودية كانت تعيش وحيدة في أعالي المدينة في مغارة بعيدة عن أعينهم ، و لا يصاحبها أحد، و ماتت هناك دون أن يعلم أهل المنطقة بحدث موتها، فاحتاروا من مصدر رائحة التعفن، إلى أن اهتدى أحد الأعيان إلى سر تلك الرائحة فأمر بإشعال النار في نباتات طيبة، و من ثم أصبح طقس النار في العنصرة عادة سنوية عند أهل المنطقة بحيث أصبحت عندهم تقاليد مسايرة لهذا الطقس، فهم يشعلون النار في قصب تنبعث منه رائحة تشبه ما يسمى بالفاسوخ الذي يستعمل عند الشجرة لإبعاد الأرواح الشريرة ، و يسهم دخان تلك النار في منح قوة أكبر لتلك الأشجار و النباتات و أحيانا يكتفي أهل المنطقة بسقي الأشجار بماء ممزوج برماد نار " العنصرة" و أحيانا تعلق نباتات و أزهار خاصة على الأشجار لضمان إخصابها و لا يكتفي أهل بني سنوس بالعمل على الإكثار من ثمار الأشجار بل يسعون كذلك إلى جعل الأبقار و الأغنام تقفز فوق نار العنصرة من أجل ديمومة سلامتها و قوتها, فيما ينشغل الأطفال باللعب بالماء على ضفاف الأنهار , و هي طقوس شبيهة بتلك التي تحدثنا عنها في موضوع النار و التطهير.

أما العنصرة في أحواز * تلمسان فهي تشبه الطقوس التي تقام في مناطق أخرى من الجزائر فمن خلال المقابلات التي أجريتها مع بعض الفلاحين. فإن إشعال النار في أوائل شهر أوت من كل عام, ما هي إلا وسيلة لكي تأتي حقول الأشجار بثمار وفيرة, إذ

*- هي إحدى قرى تلمسان تبعد عن المدينة بـ....35 كلم .
*- الأحواز من الحوز و هو الريف المحاذي للمدينة

يقوم الفلاحون بإشعال النار في تبن مبلل حتى ينتج عنه دخان كثيف, يستطيع أن يصل إلى أبعد مكان من حقل الأشجار, و هكذا يفعل الفلاحون المجاورون للحقل. و قد حدثني فلاح منهم " إن مدة العنصرة تتراوح بين 14 يوما و21 يوما, و يمكن معرفة تاريخها بعلامات خاصة, و هي أنها تأتي في الصمايم و بالذات عندما يكون النهار شديد الحر, و ليس فيه رياح (ساكن). و في معرض رده عن سبب هذه التسمية " العنصرة" قال " سميت بهذا الإسم منذ أمد بعيد لا يمكن معرفة تاريخه بالضبط, و كل ما نعرفه أن كلمة عنصرة مأخوذة من كلمة "عنصر" و هي قمة الحر في الصيف.

بعد هذا العرض المختصر لطقوس " العنصرة" في العديد من مناطق الجزائر و العالم نحاول أن نقف عند بعض الرموز الخفية التي نجدها وراء مختلف الأساطير التي قيلت عنها منها:

أ- **الانبعاث :** إن عملية البعث و التجديد تكون من خلال الاعتقاد السائد عند الشعوب القديمة ، و التي تشبه أسطورة الطائر العنقاء الذي يبعث من رماد احتراقه. فالأرض حسب هذا الاعتقاد تنبعث و تتجدد بعد فصل الجذب من خلال القدرة الإخصابية للرماد, حتى قيل أن " يثبت كيمياويا أن الرماد يحتوي على البوتاسيوم"[1]

ب- **الإخصاب** : يبدو مما سبق أن الإنسان قد ربط منذ البداية بين خصوبة المرأة و خصوبة الأرض ، و عكس ذلك من بعد في معتقداته، و طقوسه الدينية، إذ حصل في الأسطورة المتعلقة بالعنصرة، تحويل رمزي من خصوبة المرأة في الإنجاب إلى خصوبة الأرض بعد التطهير، و كل خصوبة كانت بالنسبة للإنسان، ضرورة حياتية،

[1]- جلبير دوران- الخيال الرمزي ص212 .

خصوبة المرأة لإنجاب الأولاد من أجل العمل و حفظ النوع، و خصوبة الأرض من أجل الغذاء و البقاء. يقول جلبير دوران" كان الناس يجلون الوظيفة الجنسية و الجانب الجنسي من آلهتهم إجلالا عظيما، لا لأنهم يرون في ذلك شيئا من الفاحشة، بل لأنهم يرتبطون ارتباطا وجدانيا بالخصوبة في المرأة، و في الأرض. و لذلك عبدوا بعض الحيوانات كالعجل مثلا لأن لهما – فيما يظهر- القوة الإلهية في الإنسان أو قل أنهما يرمزان لتلك القوة "[1].

جـ - <u>الاستمطار:</u> سبق و أن قلنا بأن طقوس العنصرة تقام في أيام الجذب أي بعد أن أعطت الأرض غلاتها، فلا بد من تجدد زمن الإخصاب لسنة جديدة، و هذا لا يكون إلا بنزول المطر، و قد ذكر جان سارفييه بأن الاستمطار بالنار لا نجده في طقس العنصرة فقط و إنما هو موجود في طقوس أخرى في منطقة البحر المتوسط، إذ نجد هذه الظاهرة في منطقة البروفانسي، ففي 13 أوت يقوم شخص بارتداء قناع الحاكم البروفانسي يحمل اسم أبو نيروز، أي السنة الجديدة، و يقوم بحرق ثيابه الموضوعة على قطعة خشب. هذا الطقس نجد له شبيها آخر في مصر الفرعونية إذ يؤكد علماء مصر أن فرعون قتل بهذه الطريقة أثناء مرحلة جفاف دائم. و كيف ما كانت التفسيرات التي أعطيت لمثل هذه الطقوس، فإن الشيء المؤكد أن ظاهرة عالمية نجدها عند مختلف الشعوب و هذا لوجود تطابق في المضامين العامة مع اختلاف في الجزئيات و هذا ما توصل إليه جلبير دوران عندما قال " أن النار لا تزال صامدة في التراث البشري و في أذهان الشعراء"[2]

---

[1]– جلبير دوران – الخيال الرمزي – ص96 .
[2]– نفسه ص200 .

نخلص من كل هذا أن الأسطورة المتعلقة بطقس " العنصرة" تصل الإنسان بالطبيعة و حركة الفصول و تناوب الخصب و الجذب و تمنحنا نوعا من الاستمرار في الحياة التي لا تتوقف و تعين على تصور واضح لحركة التطور في الحياة الإنسانية.

و لهذا السبب أخذت أسطورة طقس العنصرة قداسة روحية عند الفلاحين خاصة, بالرغم من جهلنا بفائدتها الاقتصادية لأن الشيء المؤكد في مثل هذه الطقوس هو الاعتقاد الروحي لما هو مقدس، لأن الأسطورة هي في الأصل إعلان عما حدث في البدىء . فهي بذلك حقيقة" تؤسس للحقيقة المطلقة و بالتالي يصبح كل ما هو أسطوري مقدس و كل ما هو دنيوي مدنس و لأن الدنيوي لم يؤسس أنطولوجيا بالأسطورة و ليس له نموذجا مثاليا، فما من عمل مرتبط بالأسطورة فإنه يحمل معاني مفتوحة على العالمين، على عالم الروح، أما العمل الدنيوي فليس له ما يبرره، سوى فائدته الاقتصادية"[1]

ب - **النار و السحر :**

تتخذ النار في المعتقد الشعبي وسيلة مثلى للإسهام في نجاعة فعل "السّحر" إذ من خلالها يتم استحضار الجنّ أو إبعاده ممّن أصيب بالصّرع.

و ذاك ربط يوثق العلاقة بين الشيطان و النار سيرا وفق التصوّر الديني الذي يظهر في كثير من آياته أنّ الجنّ مخلوق "من مارج من نار" (الآية..) فالمخلوق لا تتجلى حقيقته إلا بإعادته إلى أصله، أو رسم صورة شابهة له على اعتبار أنّ "الشبه ينتج الشبيه" ، وقد يفسر ذلك ما يقوم به "كثير من الناس في مختلف العصور لإلحاق

[1]– مارسيا إلياد . المقدس و الدنيوي ص91 .

الأذى أو الدّمار بأعدائهم عن طريق إيذاء أو تدمير صورهم، إعتقادا منهم أنّ ما يلحق بالصورة من شر و ضر يلحق بصاحبه، أنّه حين يتمّ تدمير الصورة يموت الأصل بالضرورة"[1] فيصبح تبعا لذلك إيقاد النار عودة إلى أصل الشيطان ووقوف على تكوينه الأول و الذي لا يقوى على عدم تلبية نداء الساحر، إذ رفضه يذهب ريحه.

و لا شكّ أنّ استحضار النار في التعاويذ السحرية طقسا اعتادت البشرية على ممارسته عبر حقبها الطويلة ضمن ماسماه فريزر بالسحر التشاكلي.

و يستند اعتماد الساحر على النار في ممارسته على تصور شعبي يربط بين الجن و النار، وجود الأولى ينفي الثاني، و إصرار الساحر على تقريب شعل النار من الرجل "المصروع" يمثل من وجهة أخرى اعتقادا راسخا بجدية فعله و إيمانا بقدرة لإمكانية النار على إضعاف قوى الجن و جعله يتهاوى مستسلما بعد أن لمح أصله في النار و التي يخشى أن يعود إلى عهده الأول بها.

جـ - النار و العلاج : (الكيّ) :

عندما تسمو النار على الإرتباط اليومي لحاجيات الإنسان تصبح وسيلة لإحضار الجن أو إبعاده لدى فئة خاصة رأت ارتباط النار بمخلوقات غبر مرئية تنير بعض جوانبها النار, فيكون فعلها في هذه الحالة مورّى على عامة الناس لا يعلم فاعليتها إلا من احترف السحر. لكنها تغدو أكثر تأثيرا لدى فئات واسعة من المجتمع عندما تصبح أداة لتخفيف وطأة المرض و خلاصا من آلام لم تنفع معه إنجازات كبرى مخابر الأدوية.

---

[1] - - فريزر : الغصن الذهبي 109/1.

صار شائعا لدى عامة الناس أنّ "الكيّ" علاج فعّال لأمراض مزمنة (مرض الأطفال النون ، داء المفاصل (الروماتيزم) ، بوسفير (داء يصيب الكبد و معه الدم)... و قد أثبتت تحارب البعض نجاعة طريقة "الكيّ" وقدرتها على جعل المريض يتماثل إلى الشفاء بعد أن يندمل جرح "الكيّ" ويبدو أن "الكيّ" ليس بمقدور الجميع القيام به، فهو موكل لفئة خاصة ألهمها ربّها قوة تنفذ من خلالها إلى إشاعة "الصحّة" لمن أصيب بأذى و طال ألمه. و هي فئة عادة ما تكون في زوايا معينة عرف أهلها بالورع و التقوى و مكارم الأخلاق، أهلتها لأن تكون محل ثقة و قبلة لمن طال داؤه واستعصى شفاؤه.

و الواقع أن علاج "الكيّ" ليس فعلا ابتدعه التصور الشعبي المعاصر، فقد كان القدماء يتداون به، و يتخذونه أداة لتضميد جراحهم في حروبهم و في مغازيهم. و إن كانت بعض أمثالهم قد جعلته آخر دواءا[1] و لكنه قد يتحول إلى أول دواء بعد أن أثبتت النار من خلالها قدرتها على منح الحياة بعد أن كان رمزا للدمار و الأذى ، إذ العلاج بالنار يضمن الحياة و ينجي من الموت التي قد تؤدي إلى النار لمن لم يتق شرها في دنياه .

و في مقام آخرى قد تكون النار وسيلة لإسترضاء الجن و دعوته لحضور جلسة الساحر و تكليفه بغلحاق الأذى أو إزالته عن شخص رأى في الساحر قدرة على تلبية رغباته. و بذلك تكون النار حاملة لإزدواجية تكاد أن تكون متناقضة فهي من جهة

---

[1] - في المثل العربي القديم "آخر العلاج الكي" ينظر الخوارزمي الأمثال نخ الأعرجي موفر للنشر ص 6

تستخدم لتخويف الجن و دعوته إلى الإبتعاد عن الضحية، و من جهة أخرى تدعوه للحضور و الإستجابة لتعاويذ الساحر. و في كل حالة فالجن يهاب النار و يخشى من استخداماتها و يلبي نداء مستعمليها متى كانت رغبته ملحقة في حضوره ، و تلك بعض مفارقات النار و بعض جوانبها المتناقضة فهي صالحة الحالات لا تعجز عن تحقيق مطالب من آمن بقدرتها و قوتها.

و لعل ذلك كله ما يفسر شيوع تعاويذ في التصور الإسلامي تخشى النار و تطلب أن يبعدها عنها على شاكلة "بسم الله الكريم، بسم الله العظيم ، أعوذ بالله العظيم من شرّ حرّ النار و من كلّ عرق نعال" وواضح من خلال عبارة "شرّ حرّ النار" الربط بين الجن و النار ، إذ النار وحدها لا تؤذي و لكن القائم عليها و مديرها هو المقصود.

د - **النار في الطقوس الدينية :**

كانت النار في أغلب الأحيان حاضرة في المعتقدات الشعبية باعتبارها رمزا لإمتلاك الحقيقة و إدراكا للمعرفة.

و من هنا كانت النار إحدى الوسائل الإختيارية التي تخضع صاحبها للتجربة خلال ممارسة طقوس شعائرية تظهر قدرته على التحكم فيها و تجسد درجة اعتلائه مصاف ذوي المعرفة و الحقيقة . يتجلى ذلك بشكل ظاهر لدى فرقة "الطريقة العساوية"[1]. ففي اعتقاد موريديها أنّ التمكن من القدرة على إخضاع النار تبدأ بقراءة آية

قرآنية نزلت في حق سيدنا إبراهيم في قوله تعالى " وَ قُلْنَا يَا نَار كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَى إبرَاهيم"[1] ثم يقرأ بعد ذلك "بسم الله الرّحمن الرّحيم الله لا إله إلاّ هو الواحد القهّار، من سبح الحوت في البحار و زين السماوات في البراري نجيني يا ربّ من عيبي و من النّار، و يشكل ذلك مؤهلا للدنوّ من النّار و لمسها بل و أحيانا أكلها دون أن تظهر علامات الحرق على أي جهة من أعضاءهم الملامسة لها. فيما لا يتمكن الخارج عن الطريقة العيساوية بلمس الجمر عن قصد، أمّا أصابه بعض العيساويين بأذى النّار فيفسرونه بخطئ ارتكب في القراءة أو الخلط بين الأدعية الخاصة بكل طقس إذ دعاء اللعب[2] بالسيف لا يتطابق مع اللعب بالنّار.

تغدو النّار عند العيساووين مجالا رحبا لإظهار قدرتهم على تجاوز ما يشكل خطرا لدى عامة الناس, فهم أكثر سموا و رفعة بعد أن استلهموا طريقة من امتلك الحقيقة و ارتوى من المعرفة، فصار جسده لا يقوى على رد روحه بعد أن انخلصت منه, وأصبح باستطاعته ايذاء جسده دون أن يعلن ألما متوقعا من ملامسة نار تتلظى ترتعد لها الأبدان عند رؤيتها. و ذاك منظر يثير العجب باعتبار شهادات معظم الحاضرين لحلقاتهم, فهم يؤكدون في غالبيتهم قدرة العيساويين على أكل النّار مشتعلة حـقيقة دون زيف أو مواراة ودون أن يظهر أثر على أجسادهم. وقد يعجز العلم على

---

[1]- الأنبياء الآية 21.

[2] - مفهوم اللعب عند الطريقة العيساوية لا يفهم منه الهزل و إنما استصغار شأن النار حين يقدم عليها من تحصن بطقوس خاصة لا يعلمها إلا من كان عضوا في الطريقة.

تفسير الظاهرة بل وجد نفسه حائرا أمام ظاهرة إحراق الأبدان دون تأثيرمهما كانت درجته . و لا يمكـــن الوقوف على تفسيـر مقنع ســـوى الإستســـلام إلى حالة الوجد و الإنحطاف و التجلي التي تدخل "النور في التجربة الروحية كما يلعب دورا رئيسيا في الشعائر في الحياة العملية و النفعية أي في شتى مجالات المقدس"[1] و من ثم يدخل العيساوي حالة من اللاوعي تسمو به إلى حالة من عدم الإحساس بالأذى, بعد أن سلّم نفسه إلى من يرتضي منه الخلود و الرضى.

و بذلك تتخذ النار بعدا آخر أزيل جبروتها و قوتها النافذة في إلحاق الأذى بالنلس لتصبح أداة لإظهار قوة الروح عندما نتخلص من سجن الجسد. و ذاك أمر غير بعيد عن بعض المعتقدات البودية التي ترى التميز و الخلاص في إلحاق الأذى بالجسم و عدم الإكتراث بمتطلباته و غرائزه.

---

[1] - أحمد ديب شعبو : النور و الإشراق في الإسطورة في الرمز و المجتمع الفكري العربي المعاصر مركز الإنماء بيروت – لبنان ع4 س 1986 ص 42.

الخاتمة

نصل إلى نهاية هذا البحث الذي افتتحناه بمقدمة رسمنا من خلالها الإشكالية و الفرضيات ، و عليه يمكن في الأخير أن نخلص إلى الإستنتاجات حسب خطة البحث المرسومة، منها:

- أن بعض المعتقدات البدائية المتعلقة بموضوع النار ظلت صامدة، لقدرتها على التكيف Adaptation . مع كل ما استجد على فكر الإنسان من تصورات و معتقدات، و لم تستثن هذه القدرة التكيفية بعض الممارسات العقائدية التي توارثتها الشعوب عبر الديانات المختلفة على الرغم من عدم تطابقها مع تصور دينها الجديد، بوصفه أقوى جدار مانع من تسرب بعض الموروث الشعبي.

- كما أن بعض المعتقدات الشعبية على اختلاف ممارسيها و تباين مواطنها تتطابق حول فكرة أصل النار، فهي عند غالبية الشعوب مقدسة لا تقل أهمية عن الماء، فقد تتخذ وسيلة للتطهير، و أداة لإلحاق الأذى أو إشاعة الخير و هي بذلك تحمل صورة متناقضة. مثل الماء تماما الوجه الأول منها مدمر باعث على القوة و التسلط ، و الوجه الثاني يتخذ أداة لرد الشر و دفع الأذى و العلل.

و إذا كانت منطقة تلمسان لا تمنح للنار دلالات خاصة بها, إذ تتصهر رموزها مع ما هو مشاع في الجزائر و عند العرب أجمعين، فإنها في بعض الأمثال تبدو متباينة

في الصيغ الشكلية فقط، دون أن يحدث ذلك اختلافا مع المضامين الشائعة.

- تبدو النار في المخيال الشعبي التلمساني مشحونة بدلالات كثيفة متصلة بالتراث الضارب في الزمن, فهي وسيلة للسحر و ميدان لإظهار التميز(عند الفرقة العيساوية) و مضربا للأمثال. و قد استكشف البحث في كثير من مواضعه أسطورية التصور الشعبي للنار و إن كان حاملوه لا يدركون تلك العلاقة.

- ترجع بعض الطقوس و الممارسات الشعبية المتعلقة بالنار إلى أصول قديمة ورثها مجتمعنا من الأمم التي تعاقبت عليها أو من الديانات الأخرى خاصة المسيحية و اليهودية أو من عادات و تقاليد الأمم المتحضرة الحديثة و الوافدة إلينا عن طريق وسائل الإعلام.

- أن مختلف المعتقدات الشعبية المتعلقة بإيقاد الشموع عند زيارة الأولياء و الأضرحة هي شكل من أشكال تقديم القربان فحسب جلبير دوران تكون النارحسب هذا الإعتقاد " حلا بديلا عن طقوس التضحية الدامية في الديانات الزراعية. فهي تنتمي إلى الطقوس الروحانية التي تحتقر جغرافية الأعماق "[1]

- أن الدلالات الرمزية للنار تكاد تكون شبه عالمية إنها مثقلة بالرموز التي تشترك فيها مختلف الشعوب و الحضارات فهي رمز الخصوبة و الإنبعاث كما هي أيضا رمز القوة و التدمير.

و في الأخير أعترف أن البحث الذي خضت فيه كان عسيرا لما استوجبه من نقص الحقائق و عقد المقارنات و لكن مع ذلك عملت جهدي في الإلمام به و خاصة من

[1]- جلبير دوران – الأنتروبولوجيا – رموزها أساطيرها-أنماطها. ص151

حيث تنوع المعتقـــدات و إثبات الشواهد لأن مثل هذه الأعمال لا يمكن أن تنجو من مصيدة الأخطاء و لكن عـــذري أن إنجـــاز عمل بمثل هذه المخاطرة ليس عملا هينا ، و إني لآمل أن يغفر لي السادة الأســـــاتذة و القـــــراء بعضا مملوقعت فيه من أخطاء و حسبي في ذلك أن يكون هذا البحث بداية لإثارة بحوث أخرى لها صلة بموضوع النار من جوانبها المختلفة.

الملاحق

ملحق الأمثال الشعبية مع الشرح

1- النَّارْ و لاَ عَمَّارْ، عَمّارْ و لاَ وَلَدَهْ.

هذا المثل لعبد يكون قد قاله في شأن المعاملات السيئة التي يعامله بها أسياده، و يجعلها درجات، فصار مثلا يضرب به للتاكيد على أن النازلة إذا نزلت على أحد فيجبَ أن لا يقلق فإن هناك ما هو شر منها.

2- اِللّي فِي كَرْشَهْ الثْبَنْ يْخَافْ مِنَ النَّار

يضرب هذا المثل لمن ارتكب ذنبا فلا يطمئن من جراء ذلك

3- دِرْ كْرَاعَكْ في النّارْ و لاَ تْخَافْ.

يزعم هذا القول أن كل من بارك له والده و دعوا الله ليحفظه فلا خوف عليه حتى لو تغافل لأن بركة الوالدين تكون حاضرة معه دائما فلا يخشى من أي سوء يصيبه.

4- شْكُونْ يَسْخَنْ عَلى نارك.

يضرب هذا المثل لمن تكتشف خطورته على الناس بعدما كان يظهر للعيان بعين البراءة.

5- شْحَالْ مَنْ قُبَّة تْزَارْ و مُولاَهَا فِي النَّارْ.

هذا القول يقال غالبا للناس السذج حتى لا يصدقوا كل من يدعي أنه من الأولياء. وهذا يعني أن الناس يحكم لهم أو عليهم بناءا على أفعالهم لا على سمعتهم التي قد تكون مغتصبة بغير حق.

6- مَا يَدْخُل النَّار ظَالم حَتَّى يَدْخُلهَا مَائَة عَالمْ.

إن الحاكم الجائريمكن أن تكون له أعذار، فقد يعتمد في سياسته و حكمه على علماء الشريعة و قد يتساهل بعضهم معه استرضاءا له، فيحللون ما حرم الله ، و يساعدونه بذلك على تحقيق ما يزين له هواه ، فيصبحوا بذلك أكثر جورا منه.

7- النَّارْ تَحْتَ الرَّمَادْ.

يضرب هذا المثل للإنسان الذي يتظاهر باللطافة و البراءة في حين أن باطنه ينطوي على خبث و شر.

8- حَرْفْ منْ القُرْآنْ و لاَ قطْرَة منْ العَسَلْ و لاَ شُعْلَة مَنْ النَّارْ.

يضرب هذا المثال للمريض عن كيفية العلاج التقليدي الذي يتدرج من العلاج النفسي إلى العلاج بالكي.

9- خَرْجَّه كَالجَنْ فِي الرَمَادْ.

جرت العادة عند المتطببين عندما يعزمون على المرض أن يخرجوا الجان الذي يسكنهم بأن يعرضوا في كانون مملوءا بالرماد فالمثل يعني إذن تخليص الشخص من خصمه بدون ضرر.

10- سَرْوَالُو حَلْقا ويَتْخَطى النَّارْ.

يضرب هذا المثل لمن يتجاوز حده و يذهب إلى القيام بأفعال لا يقدر عليها و رحم الله من عرف قدره و وقف عنده.

11- مْنَايَنْ جَبْتْ الحْمُورَة يَا المَصْقَارْ، مَنْ الشْمِيشَة و لاَ مَنْ النَّارْ.

يضرب هذا المثل للإحتقار و الحط من مكانة إنسان كان قبيحا و أصبح جميلا.

12- حطب جَهَنَّمَ.

يقال هذا المثل لشخص صعب المعاشرة و المصاحبة و تكون سلوكاته كلها شريرة.

13-انْطَفَأَتْ نَارَهْ.

يضرب هذا المثل لشخص دارت عليه الدائرة فأصبح بعد القوة ضعفا و بعد الغنى فقرا و بعد العز ذل.

14- مَا غْرَقْهَا لا طَابَتْ و لا احْتَرَقَتْ.

يقال عن الشخص الذي لا يشغل باله إطلاقا بقضية من القضايا بحيث لا رأي له فيها أبدا.

15- قلبي عَلَى ثَمْرَة و قلب مَّاهْ عَلَى جَمْرَه.

إن من طبيعة الولد الصغير أن لا يشعر بالخطر و إذا شعر به لا يكترث لأمره بخلاف الأم فإن قلبها عليه دائما.

16- خَايَنْ و فِي يَدَهُ شَمْعَة.

يقال هذا للتعجب من الشخص الذي تجاوزت وقاحته كل حد كاللص المستهتر الذي يسرق في وضح النهار.

17- الله يْقَدِّيهَا بينَاتْهُمْ.

يقال هذا المثل لإثارة الفتنة بين عدوين قصد التخلص من شرورهما.

18- يَحْرَق النْوَالا و يْبْكِي مْعَ مُولاهَا.

يقال هذا المثل لمن يتظاهر بالطيبة و نفسه تكون منطوية على شرور وهناك صياغة أخرى لهذا المثل هي

- يَحْرَقْ النَادرْ و يَبْكِي مَعَ مُولاهْ.

19- الجْنُورْ يْحَمُّو القدُورْ.

يضرب هذا المثل للدلالة على الحاجة في الإستغاثة بالكبار إما لسداد رأيهم أو لبركتهم .

20- رَاكْ غِيلْ الثْعْنْصَرْ.

يقال للشخص الذي يحاول أن يقوم بتحقيق شيء ما عبثا و دونما جدوى.

ملحق المصطلحات الأجنبية

Agni = إله النار عند القدماء

Athra = إله النار في الميثولوجي الفارسية

Anima = صورة المرأة الأثرية عند الرجل

Animus = صورة الشاب الأول بطل المغامرات

Aceret = كلمة عبرية تعني عيد العنصرة

Adaptation = تكيف

Contagious = البحر الإتصالي

Combustion = تفحم

le crut = نيئ

le cuit = طازج (مطبوخ)

Eau forte = الماء القوي

Embilding = لفظة ألمانية تعني القدرة على تكوين الصور

Etincelle = شرارة

Fonction représentative = وظيفة تمثيلية

Fantasy – fancy (Imagination) = القدرة على تكوين صور توضيحية

Hallucination = هلوسة

Homéopathic = السحر المثلى

Homo-Sapiens = الإنسان المفكر

Imagination = مخيال

To imagine = لفظة إنجليزية تعني القدرة على منح أوهام معينة صفة حقيقية

Imaginaire = خيالي

Khrio = إدهن إطلي

Khristos = المسيح

Mythonomie = مرض جنون الكذب

Oxidation = تأكسد

Pentécôte = الاسم التلموذي لعيد العنصرة

Promethous = هو سارق النار من الألهة في الأساطير اليونانية

Rite = طقس

ritus. = كلمة لاتينية تعني العادات والتقاليد

Reproductrice = مستعيدة

Simbild = لفظة ألمانية تعني موحد الأزواج المتناقضة

Tholba = كلمة عربية تعني حفظة القرآن الكريم

ultra vivant = الحي الأعلى

المصادر و المراجع

المصادر

- القرآن الكريم
- التوراة الكتاب المقدس ترجمة تقريرية – الطبعة 2- 1988
- الإنجيل

أ- المراجع العربية :

- الأشقر (عمر سليمان) اليوم الآخر : الجنة والنار - دار الشروق - الجزائر . ط2 1991 .

- أركون محمد الفكر الإسلامي - ترجمة : هاشم صالح . المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر د.ط 1993 .

- البطل (علي) – الصورة في الشعر العربي - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر -1981.

- الجاحظ (عمر بن بحر) .

بن حمودة (محمد) – الأنثروبولوجيا البنيوية من خلال أبحاث ليفر شرويس – دار محمد علي الجامي للنشر صفاقس - تونس – الطبعة الأولى 1987 .

الخوارزمي (أبو بكر محمد بن العباس) – الأمثال – تحقيق محمد حسين الأعرجي موفم للنشر - الطبعة الأولى 1993 .

ابن خلدون (عبد الرحمن)- المقدمة - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - الطبعة الأولى 1993 .

خورشيد (فاروق) – الموروث الشعبي – دار الشروق - لبنان - الطبعة الأولى 1992 خورشيد (فاروق) – عالم الأدب الشعبي العجيب – دار الشروق - لبنان - الطبعة الأولى 1991 .

- الرازي (محمد بن أبي بكر) – مختار الصحّاح – دار القلم بيروت - دون الطبعة .
- زكريا (ميشال) – الألسنية – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت ط2 –1983 .
- ابن سينا – كتاب النجاة - تحقيق ماجد فخري - منشورات دار الأفاق الجديدة - بيروت الطبعة الأولى 1985 .
- سعفان (حسن شحاتة) –علم الإنسان الأنتروبولوجيا منشورات مكتبة العرفان - بيروت -دون الطبعة .
- ابن سيرين ( ) تفسير الأحلام الكبير- دار الكتاب الحديث – بيروت ط5 – 1995 .
- الشنتناوي (أحمد) – الحكماء الثلاثة - دار المعارف - مصر– الطبعة الثانية 1967 .
- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) – الملل والنحل - دار صعب بيروت - د.ط 1986 .
- الشنواني (مصطفى حمدي) و فتيحة محمد إبراهيم - مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان - دار المريخ للنشر - السعودية - الطبعة الأولى –1988 .
- طوالب (نور الدين) –الدين والطقوس والتغيرات -ديوان المطبوعات الجامعية - ترجمة وجيه التتبعين الطبعة الأولى 1988 .
- علي جواد – المنمّل في تاريخ العرب قبل الإسلام – دار المعارف - ط1 1986 .
- عاطف جودة نصر – الخيال مفهوماته ووظائفه - الهيئة المصرية للكتاب - الطبعة الأولى 1984 .
- عاطف جودة نصر – الرمز الشعري عند الصوفية – دار الأندلس - بيروت الطبعة الأولى – بدون سنة .
- عجينة (محمد) – موسوعة أساطير العرب - دار الغارابي - بيروت –لبنان –ط1 1994 .

-ابن عربي (محي الدين) الفتحات المكية المكتبة العربية تحقيق وتقديم د. عثمان - يحي - تصدير ومراجعة د إبراهيم مدكور . المجلس الأعلى الثقافة بالتعاون مع معهد الدراسات العليا بالسربون – الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1985

-العقاد (عباس محمود) الله – دار كتاب الهلال – د.ط 1954 .

-غوري (إبراهيم حلمي) - الشمس - سلسلة عالم المعرفة -د.ط- دار الشرق العربي

-القزويني (زكرياء) - عجائب المخلوقات -وغرائب الموجودات - منشورات دار الأفاق الجديدة - بيروت الطبعة الرابعة 1981 .

-كويحل (إبراهيم) النار والنور - دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى 1971 .

-كمال (علي) –أبواب العقل الموصدة (باب النوم وباب الأحلام) – ط2 1990 .

-مبارك الميلي – تاريخ الجزائر القديم والحديث . الجزائر – الطبعة الأولى –1976 .

-النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الأرب في فنون الأدب - وزارة الثقافة والإرشاد القومي – مصر –د.ط .

-ابن النديم (محمد ابن اسحاق) الفهرست – دار المعرفة بمصر- الطبعة الثانية 1954

المراجع المترجمة :

- إلياد (مارسيا) - صور ورموز – ترجمة حسيب كاسوحة - منشورة وزارة الثقافة - دمشق – سوريا د.ط.1997 .
- إلياد (مارسيا) – المقدس والدنيوي – تر.نهاد خياطة – الطبعة الأولى - العربي للطباعة والنشر الطبعة الأولى - بيروت 1984 .
- باشلار (غاستون) - شعلة قنديل - تر خليل أحمد خليل – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع - الطبعة الأولى -بيروت 1995.
- جلبير دوران - الخيال الرمزي . تر.علي المصري - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى . بيروت 1991 .
-جلبير دوران – الأنتروبولوجيا رمزها وأنساقها – تر. مصباح الصمد – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الثانية - بيروت 1993 .
-ديورانت (ول) -قصة الحضارة – تر. الدكتور زكي نجيب محمود تقديم الدكتور محي الدين صابر بيروت . دار الجيل 1988.
-سيرنج (فليب) الرمز في الفن والدين والحياة – تر . عبد الهادي عباس – دار دمشق الطبعة الأولى سوريا 1992 .
-سترويس (ليفر) الفكر البري - تر. نظير جاهل – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . الطبعة الثانية - بيروت 1987 .
-فروم (إريك) اللغة المنسية - تر. حسن قبيسي - المركز الثقافي العربي - الطبعة الأولى 1995.
-فرايزر – جيمس – أساطير في أصل النار – تر. يوسف شلب – دار علاء الدين – الطبعة الأولى - سوريا 1999.
-فرايزر (جيمس) – الحصن الذهبي – تر. أحمد أبو زيد – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .د.ط.1971.

-فرويد (سيجمونت) نظرية الأحلام - تر. جورج طرابيش – دار الطباعة للطباعة والنشر - الطبعة الثانية 1982 .

- كاتي كوب وهارولد جولد وايت – ابداعات النار – تر. فتح الله الشيخ - سلسلة عالم المعرفة - العدد 266 فبراير 2001 .

ب - المراجع الأجنبية :

- Claude levi -straus - du Miel au cendres –Librairie plon - Paris 1966.

- Carl –Gustaphe .Yung – Metamorphoses et symbole de libido – Montagne –Paris .

- J. Chevalier –dictionnaire des symboles.ED. Bouquins 1986

- Descartes : Discours de la méthode- textes présentés par André Bridoux La pleiade- Gallimard 1953.

- Gilbert- Durant- les structures Anthropologiques de l'imaginaire. Bodas- 1992

- Pierre –Daco. La prodigieuse victoire de la de la psychologie moderne

- Jacques umberger- l'imagination- que-sais-je ? Pub.1191.

- Jean servier- les portes de l'année- robert laffont- paris 1982.

المعاجم والموسوعات :

سالم محمد عدنان ومحمد وهبي سليمان - معجم كلمات القرآن الكريم - دار الفكر – دمشق - الطبعة الأولى -1997 .

كامل فؤاد وآخرون – الموسوعة الفلسفية المختصرة - دار القلم - بيروت – د.ط ...

لالاند (أندريد) موسوعة لالاند الفلسفية . تر خليل أحمد خليل - منشورات عويدات بيروت - باريس - الطبعة الأولى 1996 .

ابن منظور – لسان العرب . دار صادر – بيروت - لبنان – الطبعة الثالثة 1994 .

المجلات والصحف :

- مجلة الفكر العربي المعاصر – مركز الأنماء القومي – بيروت – لبنان - العدد 46.
- مجلة الفكر العربي - تصدر عن معهد الأنماء العربي - بيروت لبنان - والهيئة القومية للبحث العلمي - طرابلس – ليبيا العدد 42. سنة 1986 .
- مجلة منشورات مستقبلية – العدد 19.
- جريدة الرأي – العدد 971 .

الفهرس

- مقدمة

- مدخل.....ص 1

الفصل الأول

1 - النار في الحضارات القديمة.....ص11

-النار عند القدماء(اليونان-المصريين -العرب).....ص 14

2 - النار و السحر ص20

3-النار في الأديان ص24

أ- النار في القرآن الكريم..... ص25

ب- النار في التوراة ص27

ج- النار في الإنجيل ص29

د -نار المجوس .....ص 32

4- النار و العلم ص34

الفصل الثاني

- الدلالات الرمزية للنار .....ص 41

1- الرمز ص43

أ- المفهوم ص43

ب-الوظائف..... .....ص45

ج- العلاقات ص49

- الرمز و اللغة .....ص 49

- الرمز و الصورة ص50

2- رمزية النار ص60

أ- تحديد مفهوم رمزية النار (النار بوصفها رمزا).....ص60

ب- رموز النار.....ص60

*- النار و التطهير.....ص60

*- النار و الجنس ص64

*- النار و الحلم.....ص68

*- النار و فكرة المركز.....ص77

3- الماء و النار ص78

أ- رمزية الماء ص80

ب- الماء و النار و فكرة الخلق.....ص82

ج- بين طوفان الماء و طوفان النار ص.84

الفصل الثالث

الدراسة الميدانية.....ص87

- تحديد منهجي.....ص88

1- النار في الامثال الشعبية.....ص90

2- النار في المعتقدات الشعبية.....ص96

أ-الإعتقاد في الشمس.....ص97

ب-الإعتقاد في القمر.....ص98

ج- الإعتقاد في الجن و الملائكة.....ص99

د-الإعتقاد في الأنوار.....ص102

*- - نور ليلة القدر.....ص102

* نور الشعلة ص103

* نور الشمعة ص104

3- النار في الطقوس الشعبية ص108

أ- نار العنصرة.....ص109

ب- النار و السحر ص114

ج- النار و العلاج ص115

4- النار في الطقوس الدينية ص117

الخاتمة ص120

الملاحق ص123

المصادر والمراجع ص130